"الجماعات الصوفية المصرية"
الصوفي و المتصوف – طريق و طريقة

سلسلة مقالات للمفكر الدكتور: يوسف زيدان

تجميع : محمد منصور – عن جريدة المصري اليوم

2011

عن الديوان – المنتدي السياسى المصري

الديوان السياسي المصري

صفحة الكترونية على موقع التواصل الاجتماعي فيس بوك

تهدف الى نشر التوعية السياسية و ربط الأفراد بالواقع و متغيراته

و التغطية الإخبارية لبعض الأحداث السياسية من خلال كتابات بعض اصحاب الفكر

المستنير من المفكرين المصريين و المبدعين تحت سماء الوطن و بعض الكتب الإلكترونية

التى نرى أن لها تأثير حيوي و شديد الإيجابية فى التوعية السياسية ، و كل أطروحات الصفحة

أطروحات ليست دورية تعتمد على المجهود الشخصي فى التجميع و النقل و النشر

بلا أي مقابل مادي ، فقط من اجل نشر الوعي فى المجتمع المصري.

الرؤية السياسية للمسئولين عن الصفحة ، هى تعبير عن الرأي الشخصى فقط لأصحابها

و لا تعتبر توجيها لإتجاه معين أو دعوة لتبنى رؤية معينة ، فهي أراء مطروحة للنقاش

و النقد بحرية تامة مدعومه بإحترام الرأي و الرأي الأخر .

تتقدم الصفحة و المتطوعين فيها بكل الشكر لأصحاب الفكر و مبدعى مصر المستنيرين

الذين لولا أبدعاتهم لوجدنا من المشقة ما يجعل مهمتنا شبة مستحيلة.



من هو المفكر المصري :د يوسف زيدان ؟

مصري متخصص في التراث العربي المخطوط وعلومه. له عديد من المؤلفات والأبحاث العلمية في الفكر الإسلامي والتصوف وتاريخ الطب العربي. وله إسهام أدبي يتمثل في أعمال روائية منشورة، كما أن له مقالات دورية وغير دورية في عدد من الصحف المصرية والعربية. عمل مستشاراً لعدد من المنظمات مثل مكتبة الإسكندرية

الاسم بالكامـــــل : يوسف محمد أحمد طه زيدان

تاريخ الميـــــلاد : 1958/6/30

*ليسانس آداب / قسم فلسفة ، جامعة الإسكندرية 1980.

*ماجستير فى الفلسفة الإسلامية ، جامعة الإسكندرية عام 1985(عنوان الرسالة: الفكر الصوفى عند عبد الكريم الجيلى، دراسة وتحقيق لقصيدة النادرات العينية للجيلى مع شرح النابلسى) بتقدير: ممتاز.

*دكتوراة فى الفلسفة الإسلامية ، جامعة الإسكندرية عام 1989 (عنوان الرسالة: الطريقة القادرية فكراً ومنهجاً وسلوكاً، دراسة وتحقيق لديوان عبد القادر الجيلانى) بتقدير: مرتبة الشرف الأولى.

*درجة الأستاذية فى الفلسفة وتاريخ العلوم (ديسمبر 1999) بإجماع لجنة الترقيات بالمجلس الأعلى للجامعات

من مؤلفاته وتحقيقاته في التصوف

- **شعراء الصوفية المجهولون**
- **المتواليات: دراسات في التصوف**
- **الطريق الصوفي وفروع القادرية بمصر**
- **فوائح الجمال وفواتح الجلال**
- **المقدمة في التصوف، للسُّلَمى**
- **ديوان عبد القادر الجيلانى**
- **ديوان عفيف الدين التلمسانى (الجزء الأول)**
- **النادرات العينية، مع شرح النَّابُلسى**

من مؤلفاتة فى الطب

- **شرح فصول أبقراط**
- **رسالة الأعضاء، لابن النفيس**
- **المختار من الأغذية، لابن النفيس**
- **علاء الدين (ابن النفيس) القرشى : إعادة اكتشاف**
- **مقالة في النقرس لأبي بكر الرازي**
- **الشامل في الصناعة الطبية (30 مجلداً)**

من مؤلفاتة الأدبية

- **عزازيل (روايه)**
- **ملتقي البحرين**
- **النبطي**
- **طل الأفعي**

الصوفى والمتصوِّف.. بين الطريق والطريقة

قبل الخوض فى غمار هذا الموضوع «الوعر» الذى يبدو من ظاهره بسيطاً، أعنى موضوع الجماعات (الطرق) الصوفية المصرية المعاصرة، لابد أولاً من الرجوع بالزمن إلى الوراء، لنرى كيف انبثق التصوف فى تاريخنا الإسلامى، فى الوقت الذى ظهرت فيه بقية المذاهب والطرق والاتجاهات ذات الطابع الدينى.. كما يقتضى الأمرُ، التفرقة بين مفردات مثل (صوفى، متصوِّف) ومثل (طريق، طريقة)، وغير ذلك من كلمات تتشابه معانيها وتشتبه على كثير من المعاصرين، ولذلك فلا محالة عن ضبط الدلالة، حتى لا تختلط فى الأذهان المفاهيم، وهو ما لا يمكن أن يتم من دون متابعة التحولات الرئيسية فى تاريخ التصوف، وصولاً إلى عصرنا الحالى.. وهو الأمر الذى خصَّصنا له هذه المقالة الأولى من السُّباعية.

■ ■ ■

على خلاف ما يُلقِّنونه للأطفال فى المدارس، ويروِّجونه فى الأفلام والمسلسلات التليفزيونية، من أن انتشار الإسلام كان بمثابة (المعجزة) التى حدثت بمشيئة علوية، قلبت كل موازين القوى فى العالم القديم، وجعلت من المسلمين سادة للعالم شرقاً وغرباً، بعد عقود قليلة من زمن ظهور الإسلام.. على الخلاف من ذلك، أرى من جانبى (وقد أكون مخطئاً) أن انتشار الإسلام وسيطرة المسلمين على أنحاءٍ كثيرةٍ من «العالم القديم» كان نتيجة طبيعية، ومتوقَّعة، للأحوال العامة التى سادت العالم آنذاك.

ظهر الإسلامُ فى قلب جزيرة العرب، بعد قرون من محاولات العرب السابقين على الإسلام، إقامة دول وإمبراطوريات قوية، على غرار مملكة «تدمر» التى حكمتها المرأة العربية الحكيمة، المسماة (زنوبيا) أو (الزبَّاء) أو (زينب) التى ورثت المملكة العربية الممتدة من عاصمتها تدمر، بوسط سوريا الحالية، إلى بلاد فارس شرقاً وإلى الإسكندرية غرباً. وما لبث الرومان، بعد وقائع كثيرة، ومعاهدات وحروب، أن استطاعوا القضاء على مملكة تدمر بأسرِها (سنة ٢٧١ ميلادية)، وأسروا الملكة العربية واقتادوها إلى روما مجلَّلةً بعار المهزومين.

ومن تلك الممالك العربية، ما وصل به الاستقرار السياسى إلى الحال الذى سمح بجلوس النساء على العرش، حاكمات، مثل الملكة العربية (ماوية) التى أدارت باقتدار المملكة العربية فى العراق، إبَّان القرون الميلادية الأولى.. ويقال، تاريخياً، إن هناك أكثر من ملكة، حكمت هناك، كان اسمها: ماوية.

وعندما تعاظمت قوة الفرس (المعسكر الشرقى) ونازعت دولة الروم (المعسكر الغربى) للسيطرة على العالم القديم، بأسرِه، لم يكن العرب بعيدين عن لعبة توازن القوى العالمية، بل كانت لهم مشاركات تدل على الحضور القوى فى العالم من قبل الإسلام.. ولا يجب أن

يفوتنا هنا، أن القبائل العربية استطاعت هزيمة الفرس فى موقعة «ذى قار» قبل الإسلام، وكادت قبيلة (تغلب) أن تقود العرب فى سائر الأنحاء، لولا أنها ابتُليت بعد مقتل «كُلَيْب» بأخيه الأحمق: المهلهِل بن ربيعة (الزير سالم) الذى أشعل حرباً أنهكت طيلة ثلاثة وعشرين عاماً، قبائلَ بكر وتغلب والقبائل المتحالفة معهما، لأن هذا (الثائر المنتقم) لم يفهم أن أخاه كُلَيْباً، كان يؤسِّس دولة، فاندفع فى طلب ثأره حتى هدم الكيان العربى الوليد، آملاً أن يَقتل حتى ينطق أخوه فى قبره ويطالبه بإيقاف الحرب! وقد كان الزير سالم، على كل حال، سكيراً عتيداً ومتفاحشاً فى غرامه بالنساء، ولذلك نقول إلى اليوم واصفين الواحد من المتهتكين فى هذا الأمر، بأنه: زير نساء..

وقد توقفت الحروب المريرة المسماة (حرب البسوس) قبيل ظهور الإسلام، وكادت القبائل تعود للتوحُّد لولا اجتاحت جيوش الإسلام العراق والشام ومصر، ومن هنا كان القدماء من حكماء العرب يقولون: لولا الإسلام لأكلت «تغلب» الناس.

ولا يجب أن يفوتنا هنا، أيضاً، أن وقت ظهور الإسلام شهد انهياراً كبيراً فى الكيان السياسى، والعسكرى، لدولتىْ الفرس والروم، وشهد اضطراباً عقائدياً مريراً، ما بين اضمحلال ديانة المجوس فى فارس (إيران الحالية) وانتشار المسيحية النسطورية فى العراق، ثم توغُّلها فى قلب قارة آسيا، واقتتال المذاهب المسيحية الأرثوذكسية فيما بينها، قرابة قرنين من الزمان، بسبب تلك التأويلات الخاصة لنصوص الأناجيل، مما نجم عنه خلافات عتيدة، كان الإمبراطور قسطنطين الكبير يصفها فى الربع الأول من القرن الرابع الميلادى، بأنها: خلافاتٌ سوقيةٌ وضيعة..

أما اليهود، والديانة اليهودية بمذاهبها المختلفة، فقد شهدوا أصعب الفترات فى تاريخهم القاتم الحزين، وتعرضوا لأبشع المذابح على يد المسيحيين الذين قتلوا من اليهود عشرات الآلاف، عقب انتصار «هرقل» على الفرس واسترداده إيليا (أورشليم، القدس) سنة ٦٢٨ ميلادية، وهى الفترة التى تزامنت مع حروب النبى محمد «صلى الله عليه وسلم» مع يهود مدينة «يثرب» ومنطقة «خيبر»، ثم إجلائهم من المدينة، ومن بعد ذلك طردهم من الجزيرة العربية كلها، عملاً بالحديث: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب.

وراح العرب، المسلمون، بعزمهم الفتىِّ وهمَّتهم العالية، يوسِّعون سلطانهم السياسى (القرشىّ) على حساب الممالك المتهالكة: فارس التى يحكمها «شاهنشاه» نشأ فى حضن الروم، التى يحكمها «هرقل» الذى تزوَّج ابنة أخته الفاتنة (مرتينا) بمباركة عديد من الأساقفة..

وهكذا لم يكن من العسير على المسلمين أن ينتزعوا حكم العراق من بقايا دولة الفرس، وجموع العرب من قبيلة (تَغْلب) التى كانت تدين آنذاك بالمسيحية، وسمح لهم الخليفة المشهور بالتشدُّد

(عمر بن الخطاب) بالإعفاء من سداد الجزية، فى مقابل عدم تعميد أطفالهم أو تنشئتهم على النصرانية..

وكذلك، لم يكن من المستحيل على المسلمين أن يدخلوا الشام، ويتسلَّموا عاصمتها دمشق من الحاكم العربى الموالى للروم (منصور).. وأن يجتاحوا أنحاء مصر التى يسكنها العرب من قبلها بقرون، بجيشٍ لا يكفى لاحتلال حصن منيع واحد، من الحصون الكثيرة التى كانت بمصر، غير أن الذى يحول دون دخول الفاتحين، ليس حوائط الحصون، وإنما إصرار المتحصِّنين بداخلها، وقد كان (المقوقس) حسبما أوضحنا فى سُباعيةٍ سابقة، قد باع مصر سِراً للمسلمين، وتحالف معهم على (عهد) سبق مجىء عمرو بن العاص، بسنوات.

▪▪▪

وقبل مرور المائة سنة التالية على وفاة نبى الإسلام، استطاع رجال قريش السيطرة سياسياً وعسكرياً، على البلاد الممتدة من الأندلس والمغرب، إلى «خوارزم» الواقعة بقلب قارة آسيا.. ودخلت الأمم فى دين الإسلام بالآلاف، وصار أبناؤهم مسلمين يصل عددهم إلى الملايين من الناس.

ومثلما كان انتشار الإسلام، حسبما رأينا سابقاً، منطقياً وضرورياً بالقياس إلى الظروف العامة فى ذاك الزمان. كان ابتداءُ التصوف بين المسلمين، وانتشارُه السريعُ فى أنحاء العالم الإسلامى، منطقياً وضرورياً.. إذ إن الموروث الثقافى للجماعات والأمم، حديثة العهد بالإسلام، كان لا بد من ظهوره فى النطاق العام الجديد (العربى/ الإسلامى)، وهو ما ظهر مبكراً فى عدة أشكال، منها المساهمات اليهودية المعروفة فى تراثنا باسم (الإسرائيليات)، ومنها الامتدادات العربية الإسلامية للقضايا السريانية المسيحية، المعروفة فى تراثنا بأسماء (علم الكلام، علم العقيدة، أصول الدين) على النحو الذى شرحته تفصيلاً فى كتابى: اللاهوت العربى.

وفى القرن الثانى الهجرى، وانطلاقاً من النـزوع الإنسانى الأصيل للتعالى عن المحسوسات، وصولاً إلى حقائق الوجود العميقة.. وتأسيساً على عديدٍ من التوجيهات القرآنية والمواقف التقشُّفية المبهرة منذ عصر النبوة.. وإعجاباً بالصفاء الروحى الذى يعيشه الرهبان وزهاد الهنود.. وهروباً من الانغماس فى الترف والملذَّات، إبَّان العصر العباسى الأول: ظهر التصوف عند المسلمين كطريقٍ روحى يختاره نخبة من النساء والرجال الفارِّين من زخرف الدنيا الفانية، آملين فى اللحاق بعالم الحضرة الإلهية وحقائقها الأزلية الأبدية.

ظهر فى العصر العباسى الأول، صوفية مبهرون انشغلوا بالباطن عن الظاهر، من أمثال رابعة العدوية وعبدالواحد بن زيد وذى النون المصرى.. وجاء بعدهم جيلٌ من الصوفية العارمين، الذين ضربوا أروع الأمثلة فى سلوك الطريق الروحى، منهم أمثال أبى يزيد البسطامى والحكيم الترمذى والجنيد والحلاج والشِّبلى.. ثم تعمَّق المسار الصوفى، فكشف من بعد القرن الرابع الهجرى عن خبرات صوفية بديعة، رأيناها عند أفراد الرجال من الذين عبَّروا عن أحوالهم، أو أرَّخوا للصوفية

السابقين عليهم، وهم أمثال النِّفَّرى (صاحب: المواقف والمخاطبات)، وفريد الدين العطار (صاحب: منطق الطير) والقشيرى (صاحب: الرسالة القشيرية)، والهجويرى (صاحب: كشف المحجوب.(

ولم يكن هؤلاء السابقون أعضاء فى (طريقة) أو جماعة صوفية ينتسبون إليها، وإنما انتسب إليهم من بعدُ بعضُ المعجبين بطريقتهم، وكتابتهم الشعرية والنثرية، فكان هؤلاء المتأخرون زمناً بمثابة المريدين، وصار الأوائل المتقدمون بمثابة الأولياء أو «علامات الطريق» أو المشايخ المؤسِّسين.. بعبارة أخرى، كان الواحد من هؤلاء المبكرين، صاحب (طريق) وليس (طريقة)، وكانت مسيرته الروحية (مفردة) لا جماعية، وبالغة الخصوصية لا عمومية؛ انطلاقاً من المبدأ الصوفى: الطرق إلى الله، على عدد أنفاس البشر.

ومع منتصف القرن السادس، وفى غمرة التفكك السياسى العام فى دولة بنى العباس، ظهر فى الحياة الدينية الإسلامية جماعات يتحلَّقون حول شيخ حالىّ، أو تراث شيخ سابق، ويجعلون من طريقتهما فى التديُّن سبيلاً خاصاً يلتزمون به، من ناحية الالتزام بتعاليم (الشيخ) ومتابعة النوافل التى يُوصِى بها (المريدين) والاستمساك بعروةٍ روحية تجمع أهل (الطريقة).. وهو ما يظهر من خلال الطرق الصوفية الشهيرة، التى وفد عديدٌ منها إلى مصر (حسبما سيرد فى بقية مقالات هذه السُّباعية) مثل الطريقة القادرية، والطريقة الرفاعية، والطريقة الدسوقية.. وغيرها.

■■■

ومع أن القرن السابع الهجرى، كان زمن استعلان الطرق الصوفية وأوان انتشارها فى العالم الإسلامى عموماً، ومصر خصوصاً، إلا أن كثيرين من أهل التصوف آنذاك، لم يكونوا منتظمين داخل (طريقة) بعينها، ولم يؤسس عديدٌ منهم، على الرغم من شهرتهم وذيوع سيرتهم الروحية، ما يمكن تسميته (طريقة صوفية) بالمعنى الدقيق لهذا الاسم.. فمن هؤلاء، مثلاً، صوفية كبار من أمثال: ابن عربى، عفيف الدين التلمسانى، ابن سبعين، السهروردى (وأمثالهم) وهؤلاء يقال للواحد منهم: صاحب طريق.. بينما ظهر صوفية مؤسِّسون لطرق صارت من بعد ذلك شهيرة، وفيرة الأتباع، منهم: جلال الدين الرومى، أبوالحسن الشاذلى، أحمد البدوى (وأمثالهم) وأولئك يقال للواحد منهم: شيخ طريقة.

ومع أن القاعدة العامة للتصوف، منذ القرن الثامن الهجرى، تقول إن على المتصوف أن يكون له شيخ روحى (مرشد) إلا أن التصوف عرف دوماً نوعاً من الاستثناء لهذه القاعدة، فبعض كبار الصوفية، القلائل، لم يكن لهم «شيوخ» وإنما دخلوا غمار التجربة الروحية من نواحٍ خاصةٍ بهم، ابتكروها لأنفسهم، وهؤلاء يسمَّى الواحد منهم (أُوَيْسِىّ) نسبةً إلى الرجل اليمنى «أويس بن عامر القرنى» الذى عاصر النبى محمداً «صلى الله عليه وسلم»، لكنه لم يقابله قَطُّ؛ ومع ذلك صار ولياً من كبار الأولياء الذين نالوا مكانة عالية، حتى إن حديثاً رُوى عن النبى «صلى الله عليه وسلم»، يوصى فيه أبا بكر وعمر (الشيخين) بأنهما إذا لقيا (أويس) يطلبان منه أن يستغفر لهما، يغفر الله لهما..

وحين التقيا به فى موسم الحج، وعرفا منه أنه أعيق عن المجىء إلى مكة فى حياة النبى، لأنه كان يرعى أمه العجوز ولا يستطيع تركها! طلبا منه أن يستغفر لهما، فاستغفر (أويس) استغفاراً عاماً لكل المسلمين، ودعا لهم جميعاً، دعاءً عمومياً لم يختص به أحداً.. ومن هذا (المشرب) جاء بعد ذلك صوفية كبار، وُصِفوا بأنهم (أويسيون) لأنهم لم يلتقوا بشيخٍ مرشد لهم، منهم مؤسس الطريقة النقشبندية: محمد شاه نقشبند الأويسى (إشارة: كلمة نقشبندٍ فارسية الأصل، وهى تعنى حرفياً أثر النقش، ومجازاً علامة سلوك الطريق.(

■ ■ ■

لفظ التصوف، إذن، يجمع فى معناه العام بين التجربة الروحية المفردة التى يخوض غمارها (الصوفى)، والانتظام فى جماعة روحية، يسمَّى الواحد من أهلها (متصوف).. فالصوفى نموذج يكون به الاقتداء، والمتصوِّف تابعٌ يطلب الارتقاء.. الصوفى صاحب طريق، والمتصوِّف عضوٌ فى طريقة.. الصوفى مراد، والمتصوف مريد.

الصوفىُّ يطير والمتصوفُ يسيرُ

الأولُ جوهرْ،

والآخرُ سائر على المعبرْ

الأول مُخبرٌ، والآخر لا يبرح يستخبرْ

ولكلٍّ منهما سرٌّ خطيرُ

ومعنىً مبهرْ

فالمستقيمات يضمُّها الخطُّ

فلا فرار من حيِّز الدائرة، المحيط

الأكبرْ

ولا وصول مهما امتدَّ المسيرُ

ومَنْ يزعم وُصولاً،

يكفُرْ

■ ■ ■

وحسبما أسلفتُ فى سُباعية (الرؤية الصوفية للعالم) فإن التصوف نزعة أصلية فى الإنسان الساعى إلى ملامسة الحقائق العميقة فى الكون، والتوسل إلى انعكاس معانى الكون على المرآة

الذاتية (الباطنة) لهذا المتجرّد عن المحسوسات، الطامح إلى سطوع الأنوار العلوية على مرآته، أملاً فى تجلِّى المعارف الكلية بالكشف الذاتى المتعالى على قواعد الإدراك الحسى والاستدلال الاستقرائى والاستنباط العقلى.. (لابد هنا أن أترفق قليلاً، وأشرح كثيراً، فهذه مقالة فى جريدة يومية وليست محاضرة للمتصوفين).. بعبارة أخرى، أقول:

الصوفى هو المنهمك فى عشقه ومشاهداته، وهو الناظر فى الكون بعين القلب، ولذلك يرتبط التصوف بالفن والأدب، وبالشِّعر الذى يحلِّق فوق الآفاق المعتادة، ويتجاوز اللحظية والمناسباتية.. ولذلك، نصف مولانا جلال الدين الرومى فى ديوانيه (شمس تبريز، المثنوى) وليس فى كتابه (فيه ما فيه) بأنه صوفى، فهو الذى قال: ليس عجباً أن تفرَّ الشاةُ من الديب، العجب أن يكون لها منه حبيب.. وقال: إننى أفكر فى القافية وحبيبى يقول «لا تفكر فى شىءٍ سواى».. وقال: إن الدم ليتفجَّر من قلبى مع الكلمات.

وعلى الجانب الذى يبدو بعيداً، يُعَدُّ الشاعر الفرنسى العجيب «رامبو» صوفياً، حين رسم صورة شعرية ترجمتها: «وشعاعٍ ذهبىٍّ يتخضب فى هدوء، على أطراف الأغوار المتباعدة! وأشجار صغيرة، من دون قمم، يغرِّد عليها عصفور ضعيف».. لأنه هنا يرسم صورة مفارقة، متعالية عن الواقع، وهو الأمر ذاته الذى يظهر عند الشاعر الإنجليزى «بيتس» حين تغمره النزعة الصوفية، فيقول فى قصيدة له، متجاوزاً الواقع المرئى ومفارقاً المعتاد، ما نصه:

فى الغابة، رأيت نهراً

فهتفت: يا أخى..

كما تتجلَّى النزعة الصوفية فى رسوم المنمنمات، وفى لوحات صلاح طاهر التى يتموَّج فيها الحرف العربى مع اللون الباهر، وفى بعض أعمال سلفادور دالى التى تسيل فيها الأشياءُ الجامدة ويُعاد تكوين المرئيات فى الوعى.. فهذه، كلها، حالات صوفية، حتى وإن كان أصحابها غير (متصوِّفين) أى غير منتظمين فى طريقة صوفية.

الصوفية، إذن، نزعة إنسانية حرة (مطلقة) قد يكون صاحبها «صوفياً» إذا ما جاءت استجابته لهذا النداء الداخلى للعلوّ، فردية. فإن كان مندرجاً ضمن جماعة صوفية معينة، لها مشايخ وتقاليد فى السلوك (أوراد، حلقات ذكر.. إلخ) فهو يكون فى هذه الحالة «متصوِّفاً».. وبالتالى، فلا يُشترط التطابق بين الصوفى والمتصوِّف، فقد يكون الشاعر أو الفنان أو العاشق الملتهب «صوفياً» مع أنه ليس متصوفاً. فالشاعر الشهير نزار قبانى، مثلاً، لم يكن متصوفاً، لكنه عبَّر عن حالةٍ صوفية فى شعره حين قال:

حُبُّك يا عميقة العينين

تصوفٌ

تطرفٌ

عبادةٌ

حُبُّك مثلُ الموت

والولادة

صعبٌ أن يُعانَى مرتين!

■ ■ ■

وبعد، ففى المقالة القادمة سوف نلقى الضوء على طبيعة الجماعة الصوفية (الطريقة)، ونوضح اختلافها مع طبيعة وبنية الجماعات الإسلامية الأخرى، وذلك تحت عنوان (المؤتلف والمختلف، بين المتصوفة والسلفيين وسائر الإسلاميين).. ومن بعدها، نستعرض فى المقالات الخمس الباقية، الطرق الصوفية الأكثر انتشاراً فى مصر المعاصرة.

المؤتلف والمختلف.. بين الفرق الصوفية والجماعات العقائدية

ترتبط الفرق والجماعات الصوفية بغيرها ارتباطاً فى بعض الجوانب، لكنها تختلف معها فى جوانب أخرى.. وأعتقد أن تبيان المؤتلف والمختلف (الاتفاق والشِّقاق) من شأنه أن يعمِّق وعيَنا المعاصر بهذه الفِرَق والطُّرُق والجماعات التى تعيش فى مصر، خصوصاً الصوفية والسلفية، ومنها جميعاً يتكون النسيجُ المصرى، بكل ما فيه من التنوع البشرى الخلاق.

اقتربتُ سابقاً من «السلفية والمتصوِّفة» على نحوٍ تمَّ بطريق المصادفة غير المقصودة (مع أن البعض يؤكد أنه لا مصادفات فى الكون) ففى السنةِ الأخيرة من دراستى الجامعية بقسم الفلسفة بآداب الإسكندرية، صاحبتُ زميلاً بديعاً ذا لحية لطيفة، كان اسمه عبدالرحمن منيسى (أظنه لا يزال يعيش بنواحى دمياط) وكان يُقيم بالمدينة الجامعية بمنطقة سموحة، حيث اعتدتُ الترَدُّد عليه، والمبيت هناك أحياناً بالتناوب مع بقية الزملاء، حيث كانت أوقاتنا موزَّعة بين المذاكرة والكلام والنوم، بغير نظام. وكنا نأمل فى استكمال الدراسة العُليا للحصول على الدكتوراه، لأن لكلٍّ منا هدفاً عريضاً يحلم بتحقيقه.. كنتُ مدفوعاً بالأمل وحماس الشباب الباكر، أقول لعبدالرحمن إننى أريدُ «تغيير وجه الثقافة العربية» وكان بالروح ذاتها يقول لى «أريد أن أعود بالناس إلى نقاء الإسلام الأول.«

فى صلاة الفجر، كان عبدالرحمن يصحبنى إلى مسجد المدينة الجامعية، فأرى فى صفوف الصلاة شباباً غير أولئك الذين أعرفهم فى الإسكندرية. كان معظمهم من قرى الدلتا، وفى وجوههم لحى تستطيل، وفى عيونهم سكونٌ كهذا الذى يدركه المتأمل فى صور أسامة بن لادن (الإرهابى الحزينة دوماً نظرته) وكانوا يطيلون الصلاة ويعمق خشوعهم.. وكانت تلك هى المرة الأولى التى أقرب فيها مما سوف يُسمَّى: الجماعة الإسلامية.

وعلى الرغم من إعجابى الغامر بنقاء شبابها، لم أنخرط فى سلك هذه الجماعة، لسببين. الأولُ «شكلىٌّ» هو أن اسم (الجماعة الإسلامية) يستبعد بقية (المسلمين) من الدائرة، فكأن المخصوص باسم المسلمين هو أعضاء الجماعة فقط، وهذا الأمر لم يجد عندى قبولاً.. والسبب الآخر «موضوعىٌّ» وهو أن الفكر السلفى لا يتقبَّل النـزعة الفلسفية، ويعتقد أن (اليقين) يمكن أن ينحصر فى جانب واحد فقط. ثم عافت نفسى سلوك بعض مشايخهم، لاسيما أن زعيماً منهم اسمه الشيخ مصطفى (أظنه لا يزال حياً) كان قد ظهر فجأة كإمامٍ لزاويةٍ بقرب كوبرى راغب، حيث كنتُ أسكن، وكان يزعق كل مساء فى ميكروفونات عالية، مهاجماً من يسمِّيهم «النَّصارى» وناعتاً إياهم بالشِّرك والكفر الصريح. وكان من اللافت لأنظارنا، آنذاك أن رجال الأمن كانوا يرعونه، ولا يردعونه، وأنه كان فى الأصل عاملاً بسيطاً، لم يحصل على قسطٍ كافٍ من التعليم، ثم صار فجأةً (شيخاً) يراه أتباعه داعيةً، وأراه دَعِيّاً.

وفى ظروفٍ خاصة، ذكرتُ طرفاً منها فى مقالتى (التكوين) تعرفتُ عن قربٍ إلى الصوفية والمتصوِّفة، بل انخرطتُ حيناً من الدهر في الطريقتين (القادرية، الخلوتية) وكانت لى صُحبة مع أَجِلاَّء المشايخ، ومريديهم، فكانت لى رحلةٌ روحيةٌ، امتدت زمناً رحيماً رائقاً، جرت فيه أيامى هادئةً هنية.. وحسبما قالوا قديماً: قد كان ما كان مما لستُ أذكُره، فظُنَّ خيراً ولا تسأل عن الخبر.

■ ■ ■

وقد خضتُ فيما سبق ذكره، من حيث كونى شاباً مصرياً عادياً، يتطلع إلى «يقينٍ» يقيه من الغرق الفكرى فى فوضى العالم واضطرابه، وإلى طريقٍ للخلاص من الحيرة الغامرة التى تلقُّنى، ولا أجد فى (الكتب) مخرجاً منها.. ثم تحققتُ مع الوقت من أن (الخلاص) لا يمكن أن يتمَّ بشكل فردى، مثلما هو الحال فى المسار الصوفى، أو بشكل مخصوص بجماعةٍ بعينها، مثلما هو الحال فى المسار السلفى.

وأدركتُ أن (اليقين التام) لا يمكن أن يكون معتقلاً فى جانبٍ واحدٍ، مهما كان، لأن التنوع هو السمة الرئيسة للإنسان، سواء من حيث انتمائه إلى جماعةٍ بعينها، من بين الجماعات المتعدِّدة، أو من حيث تجربته الفردية فى الحياة، داخل مجتمع يحفل بتجارب فرديةٍ أخرى تكاد تخرج من كثرتها عن الحصر؛ أو من حيث المراحل العمرية وتطورات الوعى، فى مسار الحياة الواحدة.

■ ■ ■

وفى السنوات الأخيرة، تعقَّدت الأمورُ وجرت فى النهر المصرى مياهٌ كثيرةٌ، بعضها عكرٌ وبعضها الآخر صافٍ، وصار لكل حزبٍ ما به يفرحون وحوله يتحلَّقون، وقد يتصادمون.. غير أننا فى خِضَمِّ العتمة الحالية، التى ادلهمَّت مؤخراً، علينا أن نستوضح مكونات (الكل) المصرى المعاصر، بما فيه من تنوعٍ لا محدود فى المواقف الفردية والخبرات الشخصية، أو فى التوجهات العامة لدى الجماعات المصرية ذات المرجعية الدينية وغير الدينية (ومنها الجماعات الصوفية) من غير أن تغيب عن أعيننا أهمية المقارنة بين الطرق الصوفية وجماعاتٍ أخرى مصرية، خصوصاً السلفية.. ومرادنا هو تبيان الاختلاف فى «بِنية» هذه الجماعات، وتوجُّهاتها العامة، تمهيداً لفهمها والحيلولة دون اصطدامها ببعضها. وهو الأمر الذى لا تحتاجه بلادنا اليوم، ولا تحتمله.

■ ■ ■

ذكرتُ فى المقالة السابقة أن ظهور الطرق الصوفية، كان متأخراً فى الزمن (لاحقاً) على ظهور التصوف ذاته. وأن القرن السادس الهجرى، الثالث عشر الميلادى، هو الذى شهد ميلاد هذه (الجماعات الروحية) التى انتشرت من بعدُ، ونشرت الإسلام (السَّمح) فى نواحٍ عديدة، منها وسط أفريقيا والنصف الشرقى من قارة آسيا وأرخبيل إندونسيا.

والطرق الصوفية، المبكرة منها والمعاصرة، يجمع بينها ما يعرف لدى دارسى التصوف باسم (السلسلة) وهى ارتباط المشايخ فى كل طريقة، سابقاً عن سابق، بما يُسَمَّى فى المصطلح

الصوفى (الطُّرُقى) بلفظ: العهد.. وترى الطرقُ الصوفية على اختلافها، أن لكلٍّ منها (سلسلة) تنتهى عند الإمام «علىٍّ بن أبى طالب» الذى عَهِدَ بعلوم الباطن إلى تابعه «كميل بن زياد» الذى عَهِد بدوره إلى بعض المشايخ المبكرين، الذين تلقوا على يديه (العهد) الذى يَعُدُّه المتصوفة، علامة الدخول فى الطريقة.

الطرق الصوفية، إذن، سلفيةُ الجوهر، فهى تستند إلى سلسلةٍ (سلاسل) تعود بأصول كل طريقة، إلى واحد من السلف الصالح هو «الإمام علىّ» الذى تلقَّى مباشرة من نبى الإسلام الذى قال فى حقه: مَنْ كنتُ مولاه، فعلىٌّ (ابن أبى طالب) مولاه.. بينما تؤكد الجماعات السلفية على اختلافها، أنها تقتدى بالسلف الصالح (عموماً) من دون تخصيص، ومن غير استمساكٍ بسلسلة بعينها تمرُّ فى الزمن عبر رجالٍ بأعينهم، مثلما هو الحال عند المتصوفة أصحاب الطرق.

كما تجمع بين المتصوفة والسلفية، دائرة إسلامية واسعة هى (أهل السنة والجماعة) إذ إن جميع مشايخ الصوفية المبكرين والمتأخرين، ينتظمون فى إطار (السُّنّة) وهو الموقف العقائدى الذى تطوَّرت عنه فيما بعد الجماعاتُ السلفية، ولكن من دون فكرة (العهد) المتصل الذى يحتفى به المتصوفةُ كثيراً.

وفيما أرى (وقد أكون مخطئاً) فإن فكرة «العهد» هى فكرةٌ يهودية/ مسيحية، سابقة على الإسلام. فقد قام الموروث اليهودى كله، على قاعدة رئيسة تتمثل فى أن الله (الربَّ) أعطى عهداً للنبى (أبى الأنبياء) إبراهيم، يتضمن وعداً صرَّحت به الآية التوراتية الشهيرة: «لنسلِك يا إبراهيم أعطى هذه الأرض، من النهر (الفرات) إلى النهر الكبير، نهر مصر».. ولا يتم الإيمان اليهودى إلا انطلاقاً من هذه الآية (العهد، الوعد) التى طالما داعبت خيال اليهود، حتى نجح حُلم «إقامة دولة إسرائيل» التى هى أولى بشارات هذا الوعد (العهد) الإلهى المجانى لإبراهيم. وتأكيداً لمحورية هذه الفكرة، جعلت اليهودية كُتبها المسماة السماوية (أسفار موسى الخمسة المعروفة بالتوراة، أسفار الأنبياء الكبار، أسفار الأنبياء الصغار) تحت اسمٍ جامعٍ هو: العهد القديم.. الذى سوف ينظر إليه المسيحيون على اختلاف كنائسهم، أنه عهدٌ «قَدِيم» تمييزاً له عن مجموعة الأناجيل وأعمال الرسل، المعروفة باسم: العهد الجديد.

وقد اقترنت الطرق الصوفية، من دون أن تدرى، بملمحٍ آخر سابقٍ على الإسلام، هو حياة (الشركة) التى نتجت عنها «الرهبنة» كاختراعٍ مصرىٍّ أصيل، ارتبطت نشأته بظروف معينة يعرفها المؤرِّخون تفصيلاً، ومن أهمها الحالة المريرة التى كانت عليها مصر بسبب عَنَت الرومان، مما دعا عديداً من المصريين للهروب من وطأة الظلم الرومانى فى القرى والمدن المصرية، إلى مجتمعات بسيطة العيش أقاموها لأنفسهم فى الصحارى والأنحاء النائية. وانهمكوا فى الزهد والتقشف المروِّع، وإماتة شهوات الجسد، على اعتبار أنهم وهبوا حياتهم للمسيح، آملين فى اللحاق بمملكة السماء، ما دامت مملكة الأرض قد أذاقتهم صنوف الاستعباد والسُّخرة المستترة والظلم الاجتماعى الفادح. ومع أن المتصوفة لا يفرُّون إلى الصحارى كالرُّهبان (ولا رهبانية فى الإسلام) إلا أن العيش فى مقارِّ الصوفية المسماة بالخانقاوات، يكاد يطابق عيش

الرهبان فى الأديرة.. وبالمناسبة، فكلمة خانقاه التى ينطقها العامة: خانكة (الجمع: خانقاوات) هى كلمة فارسية الأصل، تطلق على المكان الذى ينقطع فيه المتصوفة عن العالم.

وقد اشتهرت فى تاريخنا المصرى خانقاوات كبرى، كان أشهرها فى القرون الماضية: خانقاه سعيد السعداء بالقاهرة.. ولطالما حظيت هذه الأماكن (الروحية) برعاية الحكام المسلمين، خصوصاً المماليك والعثمانيين، إذ كانوا يتقرَّبون إلى الناس، بالإحسان إلى أولئك «الأولياء» المنقطعين عن العالم، وبرعاية الخانقاوات التى يعيش فيها المتصوفة.. وهو ما كان يفعله أيضاً، الملوك والأمراء المسيحيون حين يحسنون إلى الرهبان ويرعون الأديرة.

ويشترك المتصوفة مع السلفيين فى رفضهم للفرق الكلامية، خصوصاً المعتزلة، غير أن (المتصوفة) اقتداءً بمشايخهم الكبار (الصوفية) لا يخوضون كثيراً فى الرد على هؤلاء «المتكلِّمين» بينما يهتم السلفيون بذلك، ويخصِّصون له الرسائل والكتب الكبار.

■■■

ويجمع بين الطرق الصوفية والجماعات السلفية أمورٌ أخرى، علاوة على ما سبق، منها ما يمكن إجماله فى النقاط التالية: يرتبط المتصوِّف بإمامٍ روحىٍّ مباشر (رابطة الشيخ والمريد) بينما يلتزم السلفىُّ بإمامٍ شرعىٍّ تسمِّيه بعض الجماعات (أَمير الجماعة).. يتخذ المتصوفة والسلفيون، كلاهما، من الموروث القديم منبعاً لاستلهام الخبرة الدينية، فيتأسَّى كلٌّ منهما بالسابقين من المشايخ (الصوفية، المجتهدين) كنبراسٍ ينير الطريق الروحى المسمَّى فى التصوف بالمجاهدة، وعند السلفيين الجهاد.. وبالمناسبة، فقد وردت كلمة (الجهاد) أول مرة، بلفظها ودلالتها العامة، فى التراث المسيحى السابق على الإسلام، وفى أعمال الرسل تحديداً، حيث ترد الوصية: جاهدْ فى سبيل يسوع، كما يجاهد الجندى الصالح.

ومما يجمع بين المتصوفة والسلفيين، المعاصرين، هذا النزوع للاستعلان الجماعى والظهور الاجتماعى، حيث يسعى المتصوِّفة (لا الصوفية) مثلما يسعى السلفيون، للاستعلان الجماعى المؤكد لحضور كل فريق منهما، وهو ما يفعله المتصوِّفة فى «الموالد» السنوية للأولياء، ويفعله السلفيون فى التظاهرات الاجتماعية كالأفراح والمآتم.. وإن كان استعلان المتصوفة أقل بكثير من السلفيين، التزاماً بما يُسمَّى فى الموروث الصوفى (سَتْر الحال) ولكن من دون المبالغة فى التخفِّى أو الاستتار، مثلما هو الحال مثلاً فى الجماعات السرية مثل (إخوان الصَّفا) ومن دون المبالغة فى الظهور باختيار لباس معين وهيئة خاصة، مثلما يفعل السلفيون المعاصرون حين يلبسون الجلابيب الآسيوية القصيرة، ويطلقون لحاهم مثلما كان العربُ يفعلون قبل مجىء الإسلام، ويحلقون شواربهم تمييزاً للمسلمين عن الكفار.

غير أن حالة الظهور والاستعلان (المحدود) للمتصوفة، جعلت الفريقين يختصمان. فقد رأى السلفيون أن المتصوِّفة حين يحتفون بالموالد ويتحلَّقون حول قبور الأولياء، إنما يمارسون نوعاً من (الوثنية القديمة) أو بحسب التعبير السلفى المشهور: الشرك بالله.. بينما يسخر المتصوِّفة من

قصور نظرة السلفيين للأمر، مؤكدين أن الحفاوة بالأولياء السابقين، هو من قبيل التبرُّك بهؤلاء الذين كانوا علامات الطريق إلى الله. وهو ما يعود السلفيون بدورهم إلى إنكاره، مستخدمين المفهوم القرآنى الناعى على المشركين، أنهم كانوا يتعبَّدون للأصنام لأنها (تقرِّبنا إلى الله زُلْفَى) فيجد المتصوفة أن هذا الجدل وصل إلى حَدِّ السخف، فيمتنعون عن الرد.. ويفترق الفريقان عند تلك النقطة، ولا يلتقيان من بعدها.

■■■

كما يفترق المتصوِّفة عن السلفيين فى نقطة أخرى، مهمة، هى ما يعرف فى المصطلح الصوفى باسم (الظاهر والباطن) حيث يرى المتصوفة أن السلفيين وأمثالهم، هم أهل الظاهر والمظاهر القشرية الحاجبة عن حقائق التجربة الدينية الحقة، بينما يعد السلفيون هذا الكلام، من قبيل اللغو الذى لا طائل تحته، محتجِّين بأن نبى الإسلام تركنا على (المحجَّة البيضاء) ظاهراً وباطناً، وليس هناك ما يمكن أن يسمَّى بعلوم الباطن.. فيستخفُّ المتصوفة بكلام السلفيين، ويتعجَّبون من إنكارهم لدقائق الصلة الروحية مع الله، وهو ما يُسمَّى عندهم «الاتصال» الذى يتم مع الصالحين، عبر الرؤى (المنامات) والإلهامات القلبية (الإشراقات) وتجلِّى الحقائق العلوية (الكشف) وغير ذلك من الهبات الربَّانية التى تتاح لكل البشر، وإن كان بعضهم لا ينتبه إليها، بحكم المعنى الوارد فى الآية القرآنية: (كلاً نمدُّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك، وما كان عطاء ربك محظوراً..) وهو المعنى الذى يقترب من مفهوم النصِّ الإنجيلى: إن شمس الله تُشرق على الأبرار والأشرار.. متى ٥/٤٥.

ومعروفٌ أن المفاهيم الدينية إنما تتكوَّن فى أذهان الناس، على اختلاف مذاهبهم، عن طريق فَهْم النصوص والتأويل الخاص للمفردات.. وهو الأمر الذى يُسرف فيه المتصوفة الذين يرون أن معانى القرآن تتفتح فى قلب قارئه، وفقاً للقاعدة الصوفية القائلة (اقرأ القرآن كأنه نزل فى شأنك أنت) بينما يرفض معظم السلفيين تأويل آى القرآن، ويؤكدون أن هذا التأويل هو بابٌ يفسح المجال لغُلوِّ (الغُلاة) الذين سرعان ما يمرقون من الدين كله.. والسلفيون يحتجُّون على رأيهم بالآية القرآنية (وما يعلم تأويله إلا الله، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كُلٌّ من عند ربنا..) أى أنهم يأخذون القرآن كمسلَّمات لا يجب تأويلها، بينما يحتجُّ الصوفية والمتصوفة بما لا حصر له من الآيات القرآنية، وخصوصاً ما ورد فى سورة الكهف من لقاءٍ بين النبى موسى والعبد الصالح (الخِضْر) الذى وصفه الله فى القرآن بأنه (... من عبادنا آتيناه رحمةً من عندنا، وعلَّمناه من لدُنَّا علماً) أى أنهم يطمحون إلى ذلك «العلم اللَّدُنِّى» الذى تميَّز به الخِضر (العبد الصالح) وكبار الأولياء.

ويحتجُّ المتصوِّفة على السلفيين ببعض الحجج التى لا تجد عند السلفيين رداً عليها، كاعتقاد المتصوفة بالكرامات وإمكان تصرُّف الأولياء فى الكون، وفقاً للحديث القدسى: «ما يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به...»! وهو الأصل الذى

توقف عنده الإمام السلفى الكبير (ابن تيمية) ووصفه بأنه: أصحُّ الأحاديث التى يستدل بها أهل الولاية عليها.. يقصد على صحة القول بولاية الأولياء.

■■■

ومع امتداد التراثين (المتصوفة، السلفيين) فى القرون الماضية ومع تراكم نصوص ومؤلَّفات الخلاف بين التيارين، ومنها كتب الهجوم على (ابن عربى) وكُتب الدفاع عنه، ومع هيجان الخواطر المصرية بعد الثورة المصيرية التى انفجرت فى يناير الماضى.. صار من المحتمل الصدام بين المتصوِّفة والسلفيين، وهو صدامٌ كان قد أطلَّ برأسه القبيح بعد الثورة بأسابيع، غير أن الأنظار انصرفت عنه (مع بقاء أسبابه) إلى الصدام الأقبح الذى وقع بين السلفيين، والمصريين المعاصرين من أتباع (شعب) كنيسة اليعاقبة، أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة (الأقباط) حيث سالت على الأرض المصرية دماءٌ إسلامية ومسيحية، سُفِكت ظلماً وافتراءً، لغير وجه الله. وقد انخطف قلب المصريين جميعاً (أعنى الأسوياء منهم) وملأهم الفزع على مستقبل البلاد، فسارعوا لمداواة الجرح الذى انفتح فى «إمبابة» ولم يجدوا، بعدُ، الفرصةَ للنظر فى الأسباب العميقة المؤدية لمثل هذه الأمور المدلهمَّة والفواجع الناشرة للغُمَّة فوق جميع الأمة.. وما زلنا، فى واقع الأمر، على الحال ذاته.. لم نتغير، من حيث امتلاء النفوس بالسخائم، واحتقانها بالغلّ .. فما الحلّ،

هل نأوى جميعاً إلى الظلّ

وتغيب شمسُ العقل التى،

عليه، وعلينا، تدلّ؟

وهل

تغيب الغاياتُ بعدما

تداخلتِ السُّبُلُ، ولحِق بالوضيعِ الأجلّ؟

أم يظلّ

لهذه الليلة الدَّهماء فجرٌ

قاربَ أن يطلّ؟

تصوف «الشاذلية» بين الطريقة والحقيقة

بعد نشر المقالتين الأولى والثانية من هذه السُّباعية، عاد بعض القراء والأصدقاء عاتبين علىَّ أننى أجَّلتُ الكلام عن (أصول الفقه الثورى) وعن المبادئ الرئيسة للوعى الضامن لنجاح الثورات. ولم يشفع عندهم، أننى أخذت بالأكثرية من آراء القراء الذين اختاروا البدء بالطرق الصوفية، بينما كان رأى الأقلية هو الموضوع الآخر.. وهو الموقف ذاته (أعنى المعاودة إلى المعاتبة والتبرُّم برأى الأغلبية) الذى يحدث اليوم، على صعيدٍ أوسع وأهم. إذ نرى كثيراً من المصريين، يعاودون الكلام فى مسألة الاستفتاء على التعديلات الدستورية، قائلين إن رأى الأغلبية لم يكن صائباً!

وبالتالى، تجب علينا معاودة النظر فى الموضوع، لأن قول «نعم» للتعديلات كان رأى (الإخوان المسلمين) غير الصائب.. ومن هنا، راح يستعلن عليهم الذين قالوا «لا» مؤكِّدين أنهم وإن كانوا الأقلية، فهم الأكثر وطنيةً وإدراكاً لروح الثورة المصرية.

وفيما يتعلق بالمسألة الأهم (الاستفتاء) فإنه من الخطير أن نسير فى هذا الدرب المعاكس للنهج الديمقراطى، بعدما ظل المصريون يحلمون به زمناً طويلاً. لأن الديمقراطية التى تحدثت عنها سابقاً فى المقالة المنشورة هنا تحت عنوان (داء الديمقراطية ودواؤها) ليست برنامج كمبيوتر يتم تحميله عند اللزوم، أو وصفة جاهزة نطبقها حين نريد. وإنما هى مسارٌ طويل، تتشكَّل فيه الأسس العامة والرؤى الجماعية، من خلال (الخبرة) والتراكم البطىء الراسخ، وهو الأمر الذى لا يمكن إعداده سلفاً، مثل منزل سابق التجهيز.

فالبيت الديمقراطى لا بد من الارتفاع بجدرانه خطوةً خطوة، وإلا انهار البناءُ على رؤوس السكان.. ومن هنا، أرى أنه لا يجوز لنا بحالٍ من الأحوال، خاصةً فى الفترة الحرجة الحالية، معاودة النظر فيما سبق اتخاذه من خطوات على المسار العام. وإنما يجب التركيز دوماً على الخطوة القادمة، وما ليها من خطوات تمضى بنا قُدُماً. مع الإيمان بأن المسار الديمقراطى يصحِّح ذاته، ويتجاوز أخطاءه إن حدثت.. بشرط ألا يتم التفريط فى المسار ذاته، بدعوى أنه يخدم أغراض جماعة معينة.

وعلى نحوٍ أكثر تفصيلاً، فقد كنتُ من الذين دعوا إلى «نعم» فى الاستفتاء الأخير. مع أننى لم أكن يوماً من الإخوان المسلمين، ولن أكون منهم فى يومٍ من الأيام (لسببٍ بسيط، هو نفورى من استغلال الدين فى الأغراض السياسية) فضلاً عن أن «الإخوان» والجماعات الدينية عموماً، لم يكونوا يوماً على قلب رجل واحد، مثلما يروِّجون عن أنفسهم ويبهرجون بذلك على الناس.. بل أزيدُ على ذلك، من دون أن أتزيَّد، مؤكِّداً أن حال مصر لن ينصلح ويتطور إيجابياً، إلا حين يكفُّ أصحاب اللافتات الدينية، المسيحية والإسلامية، عن المراوغة السياسية واستعمال (الدين) كورقة

لعب سياسى، سعياً لمطالب دنيوية تعود بالنفع على الزعماء الدينيين، ثم يدفع بسطاء المؤمنين المتوهّمين، ثمنها الباهظ.. الظالم.

■■■

ولِمَ سبق، فسوف نستكمل الكلام عن الطرق الصوفية التى تحظى فى مصر بأتباع كثيرين، قد يصل عددهم إلى الملايين. وكان من ألطاف الله (وعناية الرب) أن الصدام الذى كاد يقع بينهم وبين السلفيين، بعد اندلاع الثورة، لم يقع.. إذ لا يُعقل أن نهمل «فَهْم» مكونات الواقع المصرى، إلى الحين الذى تقع فيه الحوادث والمشكلات، فنسارع ساعتها إلى البحث عن حقيقة هؤلاء المتصادمين، على القاعدة الهزيلة الهزلية: مَنْ أنتم، مَنْ أنتم؟!.. لأن هذا النهج البائس، ثبت مع الأيام فشلُه، مهما كان من الاهتمام الإعلامى (المؤقت) به.

وأول ما يلفت النظر فى سياق استكشاف طبيعة «الطرق الصوفية» فى مصر، أمران. الأول منهما أن أتباع الطرق الصوفية، المصرية وغير المصرية، لم يؤثَر عنهم طيلة القرون الثمانية الماضية (منذ انتشار الطرق الصوفية فى القرن السابع الهجرى) التنازع فيما بينهم، على النحو الذى نراه عند أصحاب التيارات والمذاهب الدينية، القديمة والمعاصرة، التى اعتركت دوماً: الحنابلة والمعتزلة، القرامطة والفاطميين، الشيعة والسنة..إلخ.

ومع أن الصوفية، والمتصوفة، كانوا دائماً ما يقومون بدور جهادى ضد الظالمين من الحكام والمستعمرين الأجانب، وهو ما نرى له أمثلةً فى سيرة: عمر المختار (ليبيا) محمد ماء العينين (المغرب) محمد المهدى (السودان) محمد أبوالعزائم (مصر).. وغيرهم كثيرون، ومع ذلك فإن مشايخ الصوفية، والمتصوفة من أتباعهم الكثيرين، لم يؤثَر عنهم يوماً التنازع فيما بينهم، أو منازعة أصحاب الدنيا. إذ يُعدُّ من شروط (التصوف) عدم منازعة أهل الدنيا فى دنياهم، وعدم إنكار العقائد على أصحابها أو محاسبتهم عليها، وعدم الاعتبار للتديُّن الشكلى والتمسك بظواهر الشريعة دون حقائقها.

والأمر الآخر، اللافت للنظر فى تاريخ الطرق الصوفية بمصر، هو أن المؤسسين الأوائل لهذه الطرق. كلهم وفدوا إلى بلادنا من خارجها، والصوفى المصرى الوحيد الذى ترك علامة كبرى فى التصوف، وهو «ذو النون المصرى»، لم يشتهر أمره فى مصر، ولا ذاعت آراؤه فيها! وإنما ظهر أمره واشتهر حاله وذاعت أقواله ورؤاه المؤسِّسة للطريق الروحى (مثل فكرة السلم الروحى= الأحوال والمقامات) فى بغداد، التى رحل إليها من مصر مبكراً، وظل يعيش فيها حتى وفاته.

ولا يعنى ذلك أن المصريين لم يكن فيهم (أولياء) فالولاية غير مقصورة على جماعةٍ بعينها، وليست محصورة عن أى جماعة أخرى. ولكن أهل التصوف المصريين، لم يؤسِّسوا (تاريخياً) طرقاً صوفية واسعة الانتشار بالبلاد، كالشاذلية والرفاعية والأحمدية والدسوقية والقادرية، وإنما تفرَّعت على أيديهم هذه «الطرق» التى ورد مؤسِّسوها على مصر، من المغرب والمشرق.

والأعجب مما سبق، أن الطرق الصوفية الأوسع انتشاراً بمصر (باستثناء القادرية) ترتبط جميعاً بالشيخ أحمد الرفاعى (الكبير) عراقىِّ الأصل والإقامة، وبتلميذه الشهير «أبى الفتح الواسطى» عراقىِّ المنشأ والإقامة، مصرىِّ النهاية والوفاة.. وهو ما سوف نراه فى هذه المقالة، وفى المقالات التالية.

■ ■ ■

بدأ مؤسس الطريقة الشاذلية، الشيخ أبوالحسن الشاذلى (المولود بقرية «غمارة» المغربية سنة ٥٩٣ هجرية) مساره الروحى بالبحث عن شيخٍ مرشد، فارتحل من المغرب إلى تونس ومصر والشام والعراق، والتقى فى بغداد بالشيخ الرفاعى المرموق، أبى الفتح الواسطى. ويروى الشاذلية عن شيخهم، قوله: «لما دخلتُ العراق، اجتمعت بالشيخ الصالح أبى الفتح الواسطى، فما رأيتُ بالعراق مثله، وكان بالعراق شيوخ كثيرة، وكنت أطلب (القطب) فقال لى الشيخ أبوالفتح: تطلب القطب بالعراق، وهو فى بلادك، ارجع إلى بلادك تجده! فرجعتُ إلى بلاد المغرب، إلى أن اجتمعتُ بأستاذى الشيخ الولىِّ العارف الصديق، القطب الغوث، أبى محمد عبدالسلام بن بشيش، الشريف الحسنى. فلما قدمت عليه، وهو ساكنٌ مغارة برباطه فى رأس الجبل، اغتسلتُ فى عينٍ أسفل الجبل، وخرجت من علمى وعملى، وطلعت إليه فقيراً، وإذا به هابطٌ علىَّ، فلما رآنى قال: مرحباً بعلىِّ بن عبدالله بن عبدالجبار، وذكر لى نسبى إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ثم قال لى: يا علىُّ طلعت إلينا فقيراً عن علمك وعملك، فأخذت منا غنى الدنيا والآخرة.. فأخذنى منه الدهش، وأقمتُ عنده أياماً، إلى أن فتح الله على بصيرتى.«

■ ■ ■

وشيخ الشاذلى (عبدالسلام) يعرف بابن بشيش، وبابن مشيش. وهو اختلاف نشأ عن ظاهرة «الإبدال» اللغوية، حيث يُستبدل الحرف بحرفٍ آخر تسهيلاً لنطق الكلمة. وقد أشار لذلك، ابنُ عيَّاد الرُّندى (أحد أشهر مؤرخى الطريقة الشاذلية، ورجالها المرموقين) بقوله: «وأما أبو عبدالله السيد عبدالسلام بن بشيش، فهو من أجلِّ مشايخ الشيخ أبى الحسن الشاذلى، وعلى يديه كان فتحه، وإليه كان ينتسب إذا سُئل عن شيخه، وهو: سيدى عبدالسلام بن بشيش، واشتهر فى الغرب بمشيش.«

وعلى يد ابن بشيش (مشيش) سلك أبوالحسن الشاذلى طريق الصوفية، وفقاً لمنهج أستاذه الذى جمع بين الشريعة والحقيقة، أى الاستمساك بظاهر الدين، مع الحفاظ على جوهره العميق. وهو المعنى الذى ورد فى وصية ابن بشيش لتلميذه الشاذلى: «الزمْ الطهارة من الشرك. كلما أحدثت، تطهَّرت من دنس حب الدنيا. وكلما ملت إلى الشهوة، أصلحت بالتوبة ما أفسدت بالهوى. وعليك بمحبة الله على التوقير والنـزهة، وأدمنْ الشرب بكأسها مع السكر والصحو. كلما أفقت أو تيقظت، شربت. حتى يكون سُكرك وصحوك بالله، وحتى تغيب بجماله عن المحبة وعن الشراب والشرب والكأس، بما يبدو لك من نور جماله وقدس كمال جلاله.«

ويروى الشاذلية، أن الشيخ عبدالسلام بن بشيش، هو الذى رسم لتلميذه أبى الحسن الشاذلى (الطريق والطريقة) فبعدما تمت الصحبة بينهما (.. وبالمناسبة، فإن صحبة المريد بالشيخ ليست دائمة مثلما يعتقد كثيرون، وكان الإمام عبدالقادر الجيلانى يشير إلى ذلك بشكلٍ مجازى، حين قال: لا رضاع بعد الحولين). المهم، أن ابن بشيش قال للشاذلى بعدما انقضى زمن تلمذة الأخير على يديه: «يا علىّ، ارتحلْ إلى أفريقية، واسكنْ بلداً بها تسمى بشاذلة، فإن الله عزَّ وجلَّ يسمِّيك الشاذلى، وبعد ذلك تنتقل إلى تونس، ويؤتى عليك بها من قبل السلطنة، وبعد ذلك تنتقل إلى أرض المشرق، وبها ترث القطبية.. يا علىّ، الله الله، والناس الناس. نزِّه لسانك عن ذكرهم، وقلبك عن التمايل من قِبَلهم، وعليك بحفظ الجوارح، وأداء الفرائض. وقد تمت ولاية الله عندك، ولا تذكرهم إلا بواجب حق الله عليك. وقل اللهم ارحمنى من ذكرهم، ومن العوارض من قِبَلهم، ونجِّنى من شرِّهم، واغننى بخيرك عن خيرهم، وتولَّنى بالخصوصية من بينهم؛ إنك على كل شىءٍ قدير.«

وسار أبوالحسن على هدى أستاذه، واستقر به المقام حيناً بتونس (إفريقية) وزار مصر، ثم عاد إلى تونس والتقى هناك تلميذه الأشهر: أبوالعباس المرسىّ. ثم ارتحل الشاذلى ومريدوه إلى مصر فأقام بها زمناً، وتولَّى التدريس بجامع العطارين بالإسكندرية وببعض مساجد القاهرة، وشارك المصريين فى الجهاد ضد الصليبيين فى موقعة المنصورة التى أُسر فيها لويس التاسع.. وطاب له المقام بمصر، حتى كانت سنة ٦٥٦ هجرية، حيث نوى الشيخ الحج، فاتجه لركوب البحر (الأحمر) للعبور إلى الحجاز، لكنه توفى ببلدة تسمى «حميثرة» بصحراء عيذاب، بجنوب شرق مصر عند ساحل البحر الأحمر، ودُفن حيث توفى. ولايزال قبره قائماً هناك، يُزار، إلى اليوم.. وخلفه أبوالعباس المرسىّ فى مشيخة الطريقة الشاذلية.

ولم يترك الشيخ أبو الحسن الشاذلى كتباً، وكان يقول: كُتبى أصحابى! وقد كان له عددٌ كبير من الأصحاب والمريدين والمحبين حافظوا على تراثه الروحى.. ولاتزال بأيديهم أدعية وابتهالات خاصة (أحزاب) منسوبة إلى الشيخ أبى الحسن.

■■■

وقد انطلق الطريق الصوفى للشاذلية من الإسكندرية ليملأ أرجاء مصر، وكان بدءُ هذا الانطلاق من سيرة وآثار الشيخ أبى الحسن، وبفضل سيرة قطب الإسكندرية وشيخها الأشهر: شهاب الدين أحمد بن عمر بن علىّ الخزرجى البَلَنسى، الذى اشتهر بكنيته (أبوالعباس) وبلقبه (المرسىّ).. نسبةً إلى بلدة «مُرسِيَة» التى ولد بها سنة ٦١٦ هجرية.

ومن المأثورات المروية عن أبى الحسن الشاذلى، الدالة على المكانة الروحية لتلميذه (وزوج ابنته من بعد) قوله: «يا أَبَا العبَّاسِ، واللهِ ما صَحِبْتُكَ إلاَّ لِتَكُونَ أَنْتَ أَنَا، وأَنا أَنْتَ. يا أَبَا العَبَّاسِ، فِيكَ مَا فِى الأَوْلِيَاءِ، وَلَيْسَ فِى الأَوْلِيَاءِ مَا فِيكَ».. ومن مأثورات أبى الحسن الشاذلى التى اشتهرت بين الصوفية، عبر مئات السنين، قوله: «أَبُو العبَّاسِ مُنْذُ نَفَذَ إِلى اللهِ لَمْ يُحْجَبْ، وَلَوْ طَلَبَ الحِجَابَ لَمْ يجِدْهُ.. وأَبُو العبَّاسِ بِطُرُقِ السَّمَاءِ، أَعْلَمُ مِنْهُ بِطُرُقِ الأَرْضِ.«

وصل أبوالعباس مع شيخه الشاذلى إلى الإسكندرية، سنة ٦٤٢ هجرية، واستقرا بحىّ كوم الدِّكة الذى سيولد فيه بعد قرون، ويعيش ويموت هناك، فنان الإسكندرية الأشهر البديع: سيد درويش.. أمَّا الدروس العلمية والمجالس الصوفية، فقد اختار لها الشاذلىُّ المسجدَ المعروف اليوم بجامع العطارين (وكان يُعرف وقتها بالجامع الغربى) وقد أقبل على هذه الدروس والمجالس، جمعٌ غفير من أهل الإسكندرية.

ولا تفوتنا الإشارة هنا، إلى أنَّ الإسكندرية كانت فى هذا العصر مدينةً متميزة ذات مكانة علمية خاصة. فقد حفلت من قبل الشاذلىّ والمرسىّ برجالٍ كبار، حطُّوا رحالهم فيها وأقاموا المدارس العلمية، أمثال: الطرطوشى، ابن الخطاب الرازى، الحافظ أبوطاهر السِّلَفى.. وكان صلاح الدين الأيوبى (قبل الانقلاب البشع الذى قاده على الدولة الفاطمية) يحرص على قضاء شهر رمضان من كل عام بالإسكندرية، ليسمع الحديث النبوى من الشيخ أبى طاهر السِّلَفى.

وحين تولَّى أبوالعباس مشيخة الطريقة الشاذلية بعد وفاة أبى الحسن الشاذلى (سنة ٦٥٦ هجرية) كان عمره آنذاك أربعين سنة. وظلَّ يحمل لواء العلم والتصوف حتى وفاته ٦٨٦ هجرية، بعد أن قضى أربعةً وأربعين عاماً فى الإسكندرية، سطع خلالها نجم الطريقة الشاذلية فى الآفاق. وعند وفاته، دُفن أبوالعباس فى الموضع الذى يحتله اليوم مسجده الكبير بالإسكندرية. وكان هذا الموضع وقت وفاته، جبانةً يُدفن فيها الأولياء. وقد أُقيم سنة ٧٠٦ هجرية بناءٌ على مدفنه، ليتَميَّز عن بقية القبور من حوله فصار البناءُ مزاراً، ثم صار مسجداً صغيراً بناه «زين الدين القَطَّان» وأوقف عليه أوقافاً.

وأُعيد بناء المسجد وتم ترميمه وتوسيعه سنة ١١٨٩ هجرية.. وفى سنة ١٣٦٢ هجرية (١٩٤٣م) أُعيد بناء المسجد، ليتخذ صورته الحالية التى هو عليها اليوم (أكبر مساجد الإسكندرية) وقام ببنائه وزخرفته المهندس الإيطالى ماريو رُوسِّى. وهو معمارىٌّ شهير، شغف ببناء المساجد، وما لبث أن أعلن إسلامه. وقد توفى ماريو رُوسِّى بالحجاز، ولا تزال ذريته تعيش بمصر.. وقد التقيت قبل سنوات بحفيده، وكان يشكو بعينٍ باكية، أن مصر لا تريد أن تمنحه هو وأسرته «الجنسية المصرية» مع أنهم يعيشون هنا، جيلاً بعد جيل، منذ قرابة المائة عام.

وحول المسجد، تقوم مساجد جماعة من الأولياء وكبار الشاذلية، منهم: البوصيرى، ياقوت العرشى، الموازينى، الواسطى.. وغيرهم من الأولياء. وتعرف منطقة المسجد حالياً بميدان المساجد، وجرى قبل بضعة سنوات تجديدها وتسويرها وترميم مسجدها الأكبر: مسجد أبى العباس.. وبناء مسجد آخر، لا يقل جمالاً، هو مسجد الشيخ الشاذلىِّ الشهير: ياقوت العرشى.

■■■

وبعد «أبى العباس المرسى» تولى المشيخة الشاذلية، تلميذه: ابن عطاء الله السكندرى. الذى يُعرف عند الشاذلية بلقب (حكيم الصوفية) وقد عُرف ابن عطاء بهذا اللقب، استناداً إلى كتابه البديع «الحكم العطائية». الذى يعدُّ واحداً من أشهر الكتب التى تلخص المفاهيم الصوفية، بلغةٍ

رمزية عالية البلاغة. وهو تطوير لهذا اللون الأدبى الخاص، الذى نجده لدى صوفية سابقين، من أمثال: الحلاج (أبى المغيث الحسين بن منصور، المتوفى ٣٠٩ هجرية)، النفَّرى (محمد بن عبدالجبار، من أهل القرن الخامس)، الجيلانى (الإمام عبدالقادر، المتوفى ٥٦١ هجرية)، ابن عربى (الشيخ الأكبر محيى الدين، المتوفى ٦٣٨ هجرية.(

وقد اعطى «ابن عطاء» دفعةً كبيرة للطريقة الشاذلية باعتباره أول وأهم مؤلِّف شاذلى، فبالإضافة إلى كتابه (الحكم) ترك بين يدى الناس مؤلفات طالما اعتز بها الصوفية شاذليةً كانوا أم غير شاذلية، مثل: التنوير فى إسقاط التدبير، تاج العروس، لطائف المنن فى مناقب الشيخ أبى العباس المرسى وشيخه أبى الحسن الشاذلى.

وقد حظى كتاب الحكم العطائية، من بعد وفاة مؤلفه (سنة ٧٠٩ هجرية) بعديدٍ من الشروح، أشهرها: ابن عباد الرُّندى، شرح أحمد زرُّوق، شرح عبد المجيد الشرنوبى، شرح محمد بن أبى العلا، شرح ابن عجيبة الحسنى، شرح البريفكانى.

ومن بعد ابن عطاء الله، حظيت الشاذلية بكبار المشايخ الذين انتسبوا للطريقة على امتداد القرون التالية، وهكذا تفرَّعت الطريقة إلى (طرق) فرعية، ينتسب كل فرع منها إلى أبى الحسن الشاذلى أولاً، ثم إلى الشيخ الفرعى المقتبس من الشاذلى.

ويجمع بين تلك الفروع، التقديرُ العظيم (المبالغ فيه أحياناً) للشيخ أبى الحسن، كما تجمعهم تلك «الأحزاب» التى يحرصون على تلاوتها بعد الصلوات.. كما يتميز الشاذلية بالجمع بين الطريقة والحقيقة، أى بين الفقه والتصوف، مثلما كان حال شيخهم الشاذلى، الذى عُرف عنه قوله: حسبك من العلم، العلم بالوحدانية، ومن العمل تأدية الفرائض مع محبة الله ورسوله واعتقاد الحق للجماعة، فإن المرء مع من أحب، ولو قصَّر فى العمل.

وهناك سمةٌ خاصة بالشاذلية، هى أنهم على اختلاف الفروع التى ينتمون إليها، لا يرون فى التصوف باباً لإهمال المظهر الخارجى للصوفى، وهم يقتدون فى ذلك بشيخهم أبى الحسن الذى كان يحسن لباسه ومظهره، ويأخذ زينته عند كل مسجد، ويتحلَّى دائماً بالثياب الحسنة، قائلاً: اعرف الله، وكن كيف شئت.. ومن الوقائع الدالة فى هذا الإطار، ما يرويه الشاذلية من أن أحد مريدى الشاذلى، أراد أن يُظهر (التقوى) فراح يشرب الماء ساخناً فى يومٍ شديد الحر، وتَرَكَ الماء البارد! فنهاه الشيخ أبو الحسن عن ذلك، وقال: يا بنىَّ اشربْ الماءَ البارد، فإذا حمدت الله استجاب كل عضو منك بالحمد لله.

وللطريقة الشاذلية فى مصر اليوم، فروع تكاد تخرج من كثرتها عن الحصر. منها العزمية والبكرية والوفائية والحامدية والعروسية والفيضية، وغيرها، وكلها تجتمع على سمات رئيسة، وتفترق عند بعض الملامح الفرعية (كالأدعية والأوراد والأحزاب).. ولن نجد للشاذلية، ولا لبقية الطرق الصوفية، لباساً معيناً أو شعارات خاصة. ولن نجد لهم ذلك (الشكل الموحَّد) مثلما هو الحال فى الجماعة الإسلامية التى صرنا نسميها اليوم «السلفية».. ولن نجد فى وجوههم هذا

التجهُّم الدائم والجدية الصارمة التى نراها عند الجماعة الإسلامية التى صرنا نسميها اليوم «الإخوان». لأن التصوف لا يقوم أصلاً على المظهر، ولا يعتدُّ بظاهر الأشكال! فالصوفية كانوا دوماً يقولون: المدارُ على القلب.. وكانوا دوماً يحرصون على ما يسمونه: سَتْر الحال.

■ ■ ■

ولسوف نستكمل الكلام عن الطرق الصوفية، الأسبوع المقبل، بمقالة عن «القادرية» تتلوها مقالتان عن الطرق الصوفية الأخرى، وعن أهمية التصوف كمسارٍ روحى ومسيرة تعبُّدية لا تزعم لنفسها اليقين التام (الظاهرى) ولا تسعى للمزاحمة على السلطة السياسية، ولا تتوسل بالدين للوصول إلى الدنيا.. وهى أمور نحتاجها اليوم، فى مصر، بعدما انسربت المذاهبُ والفرق الدينية، المسيحية والإسلامية، إلى دهاليز تُنذر دوماً بالانفجار.

وتهدِّد المخالفين بالنحر

والأتباع بالانتحار،

..أم المولى جعلَنا

شعوباً للتشعُّب، وقبائل للاقتتال

..فلمَّا الكلُّ مال

متحيِّزاً إلى فئةٍ، ومتحرِّفاً لقتال

أفضى الحالُ إلى مُحال المآل

وسلَّمنا الانتظارُ للانهيار

يا زُهَّاد الأرض: تقدَّموا،

خرِّبوا صوامعكم

واقربوا منى،

قد قعدتم فى خلواتكم

من غير أصل،

فما وقعتم بشىء

تقدَّموا، رحمكم الله،

والتقطوا ثمار الحِكَم..

ما أريدُ مجيئكم لى

بل أريده لكم

■■■

يا أهلَ الأرضِ شَرْقاً وغرْباً، ويا أهلَ السَّماءِ

قال تعالَى (وَيَخْلُ ُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ(

أَنَا مِمَّا لاَ تَعْلَمُونَ..

أَنَا لُبٌّ بلا قِشْر

بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ، وبَيْنَ الخَلْقِ

بُعْدُ ما بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ

فَلا تَقِيسُونِى على أَحَدٍ،

وَلا تَقِيسُوا أَحَداً عَلَىّ

■■■

بهذه الكلمات الهادرة المتفجرة، تحدث مؤسِّس الطريقة القادرية: الإمام الصوفى، الفقيه الحنبلى، عبدالقادر الجيلانى، المتوفَّى ببغداد سنة ٥٦١ هجرية (وكان مولده بناحية جيلان الفارسية، سنة ٤٩٠ هجرية).. وهو الذى صارت طريقته الصوفية بفروعها المختلفة، أوسع الطرق الصوفية انتشاراً فى العالم، شرقاً وغرباً، على امتداد القرون التسعة الماضية، وحظيت بما لا حصر له من أتباع (مريدين) كانوا دوماً ينظرون إلى الإمام الجيلانى، الذى وصفه ابن تيمية بشيخ الإسلام فى زمانه، على أنه الإمام الذى حقق المعنى الصوفى الكامل لكلمة (الشيخ)، وهى الكلمة التى تحتاج شيئاً من الشرح.. فدعونا نسترجع هذا المعنى، مما سطرناه قديماً:

على أطراف صحارى الخلْق، وعند حدود دروب الدنيا، يضرب شيوخ الصوفية خيامهم، ليدلُّوا السالكين على سبيل العروج إلى الخالق، ويرشدوا التائبين إلى منارات طريق الآخرة. فالشيوخ هم الأدلاَّء، وهم العارفون بمسالك القرب إلى الله، لهم فراسة فيمن تهيأ للرقى، ولهم معرفة بالغارقين فى بحر الغفلات.. فما تُخطئ نظرتهم فيمن أقبل عليهم أو مَرَّ بهم، وكيف تُخطئ؟ وهم الناظرون بنور الله، المتنعِّمون بعنايته الأزلية السابقة فيهم؟!

وكان الصوفية قد أفردوا الصفحات الطوال للكلام عن شيوخ الطريق، وعن علو مقاماتهم، وعن أهمية دورهم.. حتى جاء مولانا جلال الدين، وعبَّر عن هذه الأفكار شعراً، ففى إحدى قصائد المثنوى الرمزية التى بلغت حَدَّ الروعة، يقول:

»إنَّ الشيُوخَ.. هُمْ هَؤلاء الَّذينَ - قَبْلَ أنْ يُخْلَقَ هَذَا الْعَالَمُ - كَانَتْ أرواحهم غَرْقَى فى بحرِ الجودِ! وحينَ اعْتَرضَ الملائِكَةُ عَلَى ذَلِكَ الخلْقِ، أَخَذُوا يَسْخَرُونَ فى الخفَاءِ مِنَ الملائكَةِ.. إنَّ الشُّيُوخَ قَدْ أَبْصَرُوا الشتاء إبَّانَ الصيَّفِ اللاَّهِب، وَشَاهَدُوا الظِّلاَلَ فى شُعَاعِ الشَّمْس، فَالسَّمَاءُ نَشْوَى بِمَا يُدارُ فى كَأْسِهِمْ مِنْ شَرَابٍ، والشَّمْسُ مِنْ جُودِهِم تَرْفُلُ فى وَشْىِ الذَّهب.«

وحينما يتهيأ السالك للدخول فى حرم الشيخ المربِّى، يُسمَّى آنذاك بلغة القوم: مريداً.. وهى تسميةٌ مشتقةٌ من (الإرادة) التى هى تركُ ما جَرَتْ عليه العادة، ومفارقة حظوظ النفس، ونهوض القلب فى طلب الحق، فبهذه الإرادة يتجه المريدُ إلى صحبة شيخ الطريق.

وكان الإمام الجيلانى يقول دوماً (لا رضاعَ بعد الحولين) منبِّهاً بهذه الإشارة الرمزية، إلى حقيقةٍ من حقائق الطريق الصوفى، قلَّما نجدها عند غيره من أقطاب التصوف، وهى وجوب انقطاع المريد عن شيخه متى صَحَّت بينهما الصحبة، وتأدَّب المريد على يد شيخه حتى وصل إلى حالٍ يمكنه معه مواصلة السير إلى جهة الحق.

ولوقت المفارقة دلائل وإشارات، أولها فناء «الهوى» من قلب السالك، ثم هجرانه الدنيا كليةً، وإن كان شىءٌ منها بيده، لا يكون فى قلبه، ثم صِدْق إقباله على الله، حتى يقبل الله على المريد ببعض أسراره.. وعندئذٍ، قد يكون لهذا المريد سرٌّ، لا يطَّلع عليه شيخه، كما أن للشيخ سراً لا يطَّلع عليه مريده! فيكون للمريد تعلُّقٌ بربه وسبيل إليه، يخالف سبيل الشيخ وتعلُّقه بخالقه.. يقول الإمام الجيلانى: فكيف يجتمعان، بعدما خُولِفَ بين طريقيهما؟

وعلى الرغم من تأكيده على هذه النقطة السابقة، فإن الطريقة القادرية (صحبة الشيخ والمريدين) اتسعت فى أنحاء العالم الإسلامى، بسبب عوامل أربعة: اهتمام الشيخ المؤسِّس بإرساء قواعد طريقته على الأصول الإسلامية الواضحة، الذرية الكثيرة التى خلَّفها الشيخ فتولى أولاده وأحفاده إحياء طريقته من بعده، تلقِّى عديد من كبار الصوفية الذين وفدوا على الإمام الجيلانى فى بغداد أو التقوا به فى مكة، سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ، مما أدى إلى نوع من اللامركزية فى الطريقة القادرية، حيث لم تعد بغداد هى محطّ أنظارهم كمركزٍ للطريقة.. وهكذا اتخذت (القادرية) سبيلها فى العالم الإسلامى، سَرَباً، ووصلت منها أربعة فروعٍ إلى مصر، هى بحسب الترتيب الزمنى لظهورها:

■ ■ ■

١) (القادرية الفارضية: وهى الأقدم عهداً بمصر، ترجع جذورها التاريخية إلى القرن السابع الهجرى، ومقرها بجامع السادة القادرية بالقرافة الصغرى بالقاهرة، وهو مسجدٌ عتيق تفوح منه رائحة القرون، وكان المسجد قد بُنى فى القرن السابع ليكون زاويةً للشيخ «عدىّ بن مسافر» أحد تلاميذ الإمام الجيلانى، الذى يتمسَّح به (اليزيدية) ويجعلونه من مشايخهم المؤسِّسين لمذهبهم العجيب الذى لولا استقرار القادرية فى المسجد، لكانت مصر قد ابتُليت باليزيدية منذ وقت بعيد.. وللتوضيح: اليزيدية طائفة من الأكراد، يسكن أكثرهم فى جهات الموصل العراقية وأروان الروسية، ومنهم طوائف فى نواحى دمشق وبغداد وحلب، وهم يدينون بعبادة الشيطان، ولهم كتابان (مقدسان) أحدهما «كتاب الجلوة» الذى يتضمن ما خاطب الله به عباده (اليزيدية)، مؤكداً أن جميع الكتب السماوية الأخرى، محرَّفة، والكتاب الآخر، هو «مصحف رَشْ» أى الكتاب الأسود، وفيه حديث خلق السماوات والأرض والملائكة والعرش وآدم وحواء، وأخبار القرون الأولى.

وللشيخ «عدىّ بن مسافر» المقام الأكبر عند اليزيدية، وقبره هو الكعبة التى يحجُّون إليها، وهم يسجدون لقبر الشيخ ويقولون إن الذى لا يسجد له فهو كافر!

فلما استقرت الطريقة القادرية بمنهجها (السُّنى) الواضح، بهذا المسجد القاهرى العتيق، انصرف عنه، وعن مصر كلها، جماعة اليزيدية الذين كادوا يستقرون فيه، لولا مجىء حفيد الإمام الجيلانى (علاء الدين علىّ القادرى) الذى استوطن مصر مع أسرته، منذ القرن الثامن الهجرى.. أما لقب «الفارضية» فهو مستمدٌّ من أحد مشايخ الطريقة المتأخرين، هو حفيد الإمام الجيلانى: محمد بن سليمان، الملقَّب بالفارضى، لأنه كان يتولَّى إثبات فروض النساء على الرجال، وهى وظيفة شرعية قديمة، منها اشتُق أيضاً لقب شاعر الصوفية الأشهر: ابن الفارض.. والشيخ الحالى للطريقة، هو السيد/ مسعود حجازى (المقيم الآن بالدقى) ولهم فروع بالقاهرة والدقهلية والشرقية.

■ ■ ■

٢) (القادرية القاسمية: وهى ثانية الطرق القادرية المسجَّلة اليوم بالمجلس الأعلى للطرق الصوفية. وهى فرع عتيق من القادرية بمصر، ذكر المستشرق الفرنسى المرموق «لوى ماسينيون» أنها وفدت إلى مصر فى القرن التاسع عشر، لكن هناك عديداً من الشواهد، تدل على أنها أقدم من ذلك عهداً بالبلاد.. وقد سمعتُ من شيخ القادرية القاسمية (نسبة إلى قاسم الكبير) قصة غريبة تؤرخ لبداية هذه الطريقة بمصر، هى حسبما يحكى الشيخ: دخلت امرأةٌ على الإمام الجيلانى فى مدرسته ببغداد، تشكو إليه مرضاً عضالاً كان الأطباء قد وصفوا لعلاجه الرُّمان، ولم يكن الوقت أوان رُمَّان، فأسرع «عيسى» ابن الإمام الجيلانى، ومَدَّ يده فى الهواء وأحضر لها رُمَّانة! فقال له الإمام الجيلانى إن بغداد لن تسعهما معاً، وأمرَه بنـزول مصر، فبدأت الطريقة القادرية القاسمية فى مصر على يديه!

ويتضح من هذه الحكاية، لونُ التفكير الغالب على القاسمية، وتأثرها ببدع العامة ومتأخرى الصوفية وتعلُّقهم بحديث الكرامات، ومما لا شك فيه، أنه ليس ثمة حقيقة تاريخية وحيدة فيما رواه لى شيخُ القاسمية، وليس ثمة جوانب فكرية أصيلة لهذه الطريقة.. ومع غروب الفكر الصوفى الأصيل من سماء القادرية، وبقائها كواحدة من الطرق الصوفية ذات الطابع (الشكلى) المتوارث، راح العامةُ يدخلون فى هذه الطريقة بيُسر، وبأعداد كبيرة، حتى إننى سألتُ شيخ الطريقة عن عدد مريديه، فأجاب بما معناه أن هذا العدد: لا يقع تحت الحصر!

لكن فرع القادرية القاسمية بالفيوم، تولاه شيخٌ على درجة عالية من العلم والمعرفة، هو الشيخ «محمود عبدالتواب الفَزَارى» الذى كان قد تلقى معالم الطريق الصوفى من والده، ودرس فى الأزهر، ثم درس الجيولوجيا فى جامعة الإسكندرية وحصل على الماجستير فى الجيولوجيا التطبيقية من جامعة ويزيربورج الألمانية.. وعاد إلى الفيوم فاستصلح أرضاً كثيرة للزراعة، وأقام رباطات صوفية عديدة فى صحراء الفيوم.

■■■

٣) (القادرية الشرعية: فى أعماق مسجد الإمام الشعرانى بالقاهرة، وبعيداً عن هوس المدينة وصخبها، ينـزوى فرعٌ من فروع القادرية بمصر، كان قد وفد من بلاد المغرب مع الشيخ «عبد المنعم القادرى» الذى تلقى الطريق عن شيخه محمد حبيب الله الشنقيطى، الذى تلقاه بدوره عن شيخه المجاهد العظيم: ماء العينين القادرى.

وإذ يستوقفنا هنا سبب تسمية هذه الطريقة، بالقادرية (الشرعية) فإن شيخ الطريقة المشار إليه قبل قليل، يقول فى كتابه «الركائز الإيمانية» إن تسمية طريقته مستمد من الأوراد الشرعية التى أُلهم بجمعها، ولا تخرج فى جملتها عن الكتاب والسنة.

وفى الثامن والعشرين من رجب، سنة ١٤٠٦ هجرية، انتقل شيخ القادرية الشرعية إلى جوار رَبِّه، فانتقلت معه الطريقة إلى سراديب الاضمحلال والتشتت فقد شاء الحق تعالى ألا يُخلف هذا

الشيخ أولاداً، ولم يَخلفه أحدٌ من مريديه فى مشيخة الطريقة، فتفلَّت الأتباع من الوثاق الروحى الذى كان يجمعهم، وابتلعهم الهوس.

ولقد رأينا الشفق الأخير لغروب هذه الطريقة، ففى مسجد الشعرانى (يوم الجمعة) كان الباقون لإحياء ليلة الذكر ومجلس العلم لا يتجاوزون فى عددهم أصابع يدٍ واحدة.. بعدما كان هذا المجلس، وفقاً لما ذكره القائمون على أمر المسجد، يموج بعشرات من الذاكرين والمتبتِّلين، ولقد جالسنا الباقين طويلاً، فما كان مجلس ذكرهم إلا صياحاً، وحادثناهم.. فلم نجد عندهم شيئاً من علوم الصوفية، ولم نجد لديهم خبراً عنها.

وعموماً، فأثناء سعينا وراء فروع القادرية فى مصر، لم نصادف من أنوار القادرية شيئاً، مثل ما وجدناها فى مشكاة روحية شفافة، تتلألأ بالإسكندرية، هى الفرع الرابع من فروع القادرية بمصر: القادرية النيازية.

■■■

وفى كتابه (كشف المحجوب) يقول الهجويرى: «إن الله لا يترك الأرض أبداً بلا حُجَّة، ولا هذه الأمة بلا أولياء.. كما قال عليه الصلاة والسلام، لا تزال طائفة من أمتى على الخير والحق حتى تقوم الساعة.«

والقادرية النيازية طائفة من أهل الحق والخير، شاء الحقُّ تعالى أن تكون واحدة من الصور المشرقة للتصوف المعاصر، وموطناً من مواطن النور فى ديار المسلمين، وهذا الفرع القادرى متصل النسب بالإمام الجيلانى عن طريق ولده الشيخ عبدالرزاق.

والقادرية النيازية وفدت إلى مصر من تركيا، منذ قرابة خمسة قرون، فقد نزل بعض شيوخها الأوائل فى النصف الثانى من القرن العاشر الهجرى، واستوطنوا الإسكندرية منذ ذلك التاريخ.

ولقد اجتهدنا للتعرف على أصول هذه الطريقة بتركيا، فلم نجد غير إشارة عابرة، كان ماسينيون قد أوردها عن (الطريقة النيازية) بتركيا، معتبراً إياها أحد فروع الخلوتية هناك، وذكر ماسينيون فى إشارته، أن شيخ هذه الطريقة تُوفِّى سنة ١٦٩٣ ميلادية، وبرغم التقارب التاريخى بين وفاة شيخ هذه الطريقة وبين شيخ القادرية النيازية (عبد الرحمن نيازى) فإننا لا نرجِّح أن يكون المشار إليه عند ماسينيون هو القادرية النيازية، إذ إن نزولهم بمصر، كان بتاريخ أسبق من تاريخ وفاة الشيخ الذى أشار له المستشرق الفرنسى الكبير.

ونظراً لانعدام المصادر الخاصة بتطور هذا الفرع القادرى، والتفصيلات الخاصة بانتقاله من البلاد العثمانية إلى مصر، فسوف يقتصر تناولنا على الحالة الراهنة لهذه الطريقة، ونرى أن المدخل الصحيح لهذا التناول، هو شيخها: إبراهيم حلمى القادرى.. وهو سكندرى المولد والمنشأ والإقامة والوفاة! فقد ولد بالإسكندرية فى ١٦ محرم سنة ١٣٢٢ هجرية، وتلقى الرعاية من أفراد البيت القادرى الذى نشأ فيه، وظل متولِّياً مشيخة الطريقة من وفاة والده سنة ١٣٥٥، وحتى انتقاله

إلى جوار رَبِّه وهو ساجدٌ يصلى بمريديه تراويح ليلة القدر سنة ١٣٩٠ هجرية.

وكان الشيخ مدرسةً صوفيةً جمعت أشتات المعارف الدينية، وفى هذه المدرسة تخرج رجال.. كما ترك الشيخ العديد من المؤلفات، منها ما هو مطبوع ومتداول، ومنها ما رأيناه بخط الشيخ ولم يطبع بعد.

نصَّ الشيخ إبراهيم حلمى القادرى على تولية ولده (محمد) قبل انتقاله إلى جوار ربه، وقد ورد النص بتولية الابن فى إحدى قصائد الشيخ .. ولا يزال السيد محمد إبراهيم حلمى قائماً مقام والده كشيخ للطريقة منذ انتقال الوالد.. ولا يزال مجلسهم منعقداً على النحو الذى رسمه الشيخ، فهناك، فى تلك الأمسيات النورانية الرائقة، كنا نرتحل إلى عالمهم.. وما إن نخلص من أسر الشواغل، ونلج بابهم المطرز بالنقوش النحاسية، حتى تشيع فى جنبات القلب طمأنينة السكينة، وتهب علينا نسمات شرقية قادرية، فتهدأ سورات الروح المتعب، ونتشوَّف إلى العتبات الطاهرات.

وعلى بساط القادرية النيازية، نلحظ للوهلة الأولى حضور الشيخ إبراهيم حلمى القادرى- رحمه الله- فى هذه الجلسات اليومية، فلا يزالون يتذوقون دقائق الشيخ وتلويحاته العرشية وإشاراته لمريديه، وما برحوا يستهدون بتوجيهاته فيما تسوق إليهم الأيام من أمور.

ويبدأ هذا المجلس اليومى بقراءة الفاتحة بضريح الشيخ، ثم يجتمع الإخوان مع الشيخ فى قاعة الدرس، ولهم فى كل يوم شغل: فيوم السبت مخصص لتدارس السُّنَّة، ويوم الأحد للحديث الشريف، والإثنين للفقه، والثلاثاء للتوحيد والتصوف، والأربعاء للتفسير.. ويوم الخميس تنعقد جلسة الذكر الشرعى والمراقبة، أما الجمعة فلا يجتمعون فى المساء، إنما يجلسون بعد صلاة الجمعة لقراءة ياسين، ثم ينصرف المريدون لتصريف شؤونهم الخاصة.

وخلال سنوات طوال، لم نَرَ سماعاً واحداً عند النيازية، ولم نَرَ مريداً يخرج عن حَدِّ الأدب، ولم نر جُهَّالاً يتساقطون كالذباب على موائد الموالد.. وإنما رأينا دوماً: مجلس علمٍ تَحفُّه الملائكة.

وبعد.. فقد كان عنوان مقالتى اليوم، هو عنوان رسالتى لنيل درجة الدكتوراه من جامعة الإسكندرية. ونصُّ المقالة كله، هو فقرات نقلتها بنصِّها (ومن دون أى تعديل) من الكتاب الذى نشرت فيه جزءاً من رسالتى للدكتوراه، وصدرت طبعته الأولى (الوحيدة) عن دار الجيل ببيروت، سنة ١٩٩١، تحت عنوان: الطريق الصوفى وفروع القادرية بمصر.. وبالتالى، فإن هذه المقالة كُتبت قبل ربع قرن من الزمان، ونُشرت قبل عشرين عاماً.

طريقةُ الراعى أحمد الرفاعى

من الأمور الداعية إلى التعجب، والدهشة، أن الطرق الصوفية المصرية «واسعة الانتشار» تعود بمعظم أصولها، إلى بلاد المغرب.. صحيحٌ أن مصر عرفت طرقاً صوفية كالقادرية، التى كانت موضوع مقالتنا السابقة، والنقشبندية والمولوية والبكتاشية والتمرتاشية؛ وهى طرقٌ مشرقية الأصل (فارسية، تركية) إلا أنها ظلت دوماً محدودة الانتشار وقليلة الأتباع، بالقياس إلى الطرق مغربية الأصل: الرفاعية، الشاذلية، الدسوقية، الأحمدية. وهى الطرق الصوفية الأوسع انتشاراً خلال القرون الثمانية الماضية، وفى أيامنا الحالية.

والأعجبُ مما سبق، والأدهش، أن هذه الطرق «الأوسع انتشاراً» ارتبطت جميعها بشخصية الشيخ (أحمد الرفاعى) مباشرةً، أو عن طريق تلميذه المباشر: أبى الفتح الواسطى. فقد رأينا فى مقالتنا عن (الشاذلية) أن شيخها أبا الحسن الشاذلى، كان فى ابتداء أمره قد ارتحل من بلاده الأولى، أملاً فى لقاء «الشيخ»، الذى يرسم له علامات الطريق الروحى، فتنقَّل من (سبتة) إلى ساحل أفريقية (تونس)، مروراً بمصر والشام، حتى وصل العراق والتقى هناك بأبى الفتح الواسطى، خليفة الرفاعى، الذى أخبر الشاذلى بأن «الشيخ» الذى جاء يبحث عنه، موجود ببلاده الأولى (المغرب) وليس بالعراق. فعاد الشاذلى إلى موطنه الأول، والتقى هناك بشيخه البديع، عبدالسلام بن بشيش (مشيش) وكان بينهما ما كان..

وقد صارت هذه الواقعة بمثابة «تيمة» أدبية شهيرة، رأيناها فى نصوص روائية كثيرة تحكى عن الذى يرتحل بحثاً عن (كنز) ثم يعرف عند تمام الرحلة، أن الكنز مدفون فى داره. وهى التيمة التى نراها فى إحدى قصص «ألف ليلة وليلة» وفى رواية باولو كويليو الشهيرة: الخيميائى (ساحر الصحراء.(

وبطبيعة الحال، فقد ارتبط أبوالفتح الواسطى بشيخه المباشر (الرفاعى)، وكانت بينهما صحبة «المريد والشيخ»، ثم خلفه فى رعاية أمور الاتباع. لكنه بعد حينٍ ترك العراق وجاء إلى مصر، واستوطن الإسكندرية حتى توفى بها سنة ٦٣٢ هجرية، فأرسل الرفاعية من العراق شيخاً آخر كى يخلف الواسطى، هو السيد «أحمد البدوى» الذى استقر بمدينة طنطا (طندتا) بوسط الدلتا، وصارت له بعد حينٍ طريقة صوفية خاصة، رفاعية الأصل، مستقلة الملامح.

ومن مدينة «دسوق» بشمال الدلتا، ابتدأتْ طريقةٌ صوفيةٌ كبرى كان شيخها المؤسس، هو «إبراهيم الدسوقى» الذى كان ابن بنت (سِبْط) أبى الفتح الواسطى، تلميذ الرفاعى الكبير.. مَنْ هو «الرفاعى» ولماذا وصفتُه فى عنوان مقالتى بالراعى؟

ليس من المأمون أن نتعرَّف إلى سيرة واحد من كبار الصوفية، من خلال ما كتبه عنه أتباعه، خاصةً المتأخرين زمناً. فهم غالباً ما يغرقون فى تبجيل شيوخهم، حتى يخرجوا بسيرته عن كل حَدٍّ معقول، بسبب إسرافهم فى ذكر «الكرامات» ونسبتها للشيوخ. وهى قصص خارقة مفبركة،

ربما لم يسمع بها هؤلاء الشيوخ أصلاً، ولا ارتضوا حكايتها عن أحد.. وقد تناولتُ هذه النقطة الدقيقة، قبل سنوات، فى بحثٍ منشورٍ تحت عنوانٍ دالٍّ على محتواه، هو: كرامات الصوفية، نصٌّ أدبى مضاد للتصوف.

ولذلك، فسوف نقترب من سيرة الشيخ أحمد الرفاعى، ونتعرَّف إلى شخصيته، ونعرف بعض أخباره؛ من خلال مؤرخ مشهور، بل لعله أشهر مؤرِّخ فى تاريخ الإسلام، هو الإمام السلفى الكبير، شمس الدين محمد بن أحمد، المعروف بلقب «الذهبى»، لأنه حسبما اشتهر عنه، كان يزن الأخبار التى يوردها فى كتبه بدقةٍ، مثلما يزن الصيرفى (تاجر العملة) والجوهرى (تاجر المجوهرات) قطع الذهب.

يقول الذهبىُّ فى بدء كلامه عن الرفاعى، فى الجزء الحادى والعشرين من «سير أعلام النبلاء» ما نصه: هو الإمام القدوة العابد الزاهد، شيخ العارفين، أبوالعباس أحمد بن على الرفاعى، المغربى، ثم البطائحى (نسبةً إلى ناحية البطائح بجنوب العراق).. ويقول فى نهاية كلامه عنه: وكان كثير الاستغفار، عالى المقدار، رقيق القلب، غزير الإخلاص، توفى سنة ٥٧٨ فى جمادى الأولى، رحمه الله (وكان مولده بالعراق سنة ٥٠٠ هجرية.(

وما بين البدء والمنتهى، يذكر الذهبىُّ طرفاً من أخبار «الرفاعى» وأحواله مع الله ومع الناس، فيقول ما ملخصه: وفد أبوه من المغرب إلى العراق، وسكن البطائح، بقرية «أم عَبيدة»، وتزوج بأخت الزاهد «منصور الزاهد» لكنه توفى وامرأته حُبْلَى بأحمد الرفاعى، الذى تولَّى خاله الزاهد تربيته.. فنشأ شاباً شافعياً، ثم شيخاً روحياً، رقيقاً، فياضاً بالسلوك الصوفى. ليس فقط مع أصحابه وأتباعه، وعموم الناس، بل مع جميع المخلوقات، حتى إنه كان يداوى الجريح من الكلاب!

كما روى عنه الذهبىُّ أن هرة (قطة) كانت تعيش فى بيته، نامت يوماً على طرف ردائه، فلما قامت الصلاة لم يشأ أن يزعجها بالطرد، فقصَّ طرف الرداء، ولما عاد من صلاته وَصَلَه بالخياطة، وقال: ما تغير شىء.

وكان الرفاعى يصف نفسه دوماً بصفة (اللاشىء أحمد) أو (أحمد اللاش) وكان يدعو ربه قائلاً: أى مولاى، أريدُ ألا أريد، وأختار ألا يكون لى اختيار.. وكان يستوى عنده مَنْ يمدحه ومَنْ يؤذيه، متأسِّياً بالآية القرآنية: (لكى لا تأسوا على ما فاتكم، ولا تفرحوا بما آتاكم.(

وقد اشتهر عن الرفاعى أنه كان يبتعد عن الحكام والأمراء، ولا يقوم للرؤساء، ويقول: «النظر إلى وجوههم يُقسِّى القلب».. وإذا وُضع أمامه طبقٌ فيه تمر، يتناول منه الحشف (البلح الجاف) لا الطرىَّ الطيب. ويقول: أنا أحقُّ بالدون (الأقل قيمة) فإنى مثله دون.

وهناك كثيرٌ من أخبار «الرفاعى» وأطرافٌ من سيرته الصوفية الرائقة، المبهرة، نراها عند المؤرخين المشهورين، غير المتصوفة، من أمثال ابن كثير فى كتابه (الكامل) وسبط ابن الجوزى

(مرآة الزمان) وابن خلِّكان (وفيات الأعيان) وابن العماد الحنبلى (شذرات الذهب فى أخبار مَنْ ذهب).. وترجم له الذهبى فى عدةٍ من مؤلفاته التاريخية: سير أعلام النبلاء، تاريخ الإسلام، العِبَر فى خبر مَنْ غَبر.

وقد جُمعت مواعظ الرفاعى وخطبه المنبرية فى كتابين، الأول عنوانه «البرهان المؤيَّد» والآخر بعنوان «كتاب البراكين». وكان يبدأ دوماً كلامه للناس، بعبارة: أىْ سادة (أيها السادة).. ومن كلامه المحفوظ بالكتابين، وبكتب المؤرخين، ما يلى:

»أىْ سادة، لا تجعلوا رواقى حَرَماً، ولا قبرى بعد موتى صنماً، عليكم به سبحانه، فإنه لا يضر أو ينفع إلا هو.. وكل الفقراء (الصوفية) ورجال هذه الطائفة، خيرٌ منى، أنا أحيمد اللاش، أنا لاش اللاش. أى سادة، أعينونى على أنفسكم بخمس خصال: سُنَّة الرسول، موافقة السلف على حالهم، لباس ثوب التعرية (التجرُّد) من الدنيا والنفس، تحمُّل البلاء، لباس الوقار.. طريقى دينٌ بلا بدعة، وعملٌ بلا رياء، وقلبٌ بلا شاغل، ونفسٌ بلا شهوة.. تجارتى، خدمةُ النساء الأرامل والأطفال الأيتام، وأحبُّ أن أشهد نفسى فى خدمتهم، فإننى إذا رأيتُ يتيماً يبكى، تهتزُّ مفاصلى وترتعد أعضائى حناناً له وشفقة عليه، وأخاف منه بكاءه.«

ومن أحوال الرفاعى الدالة على أحقيته وصف «الراعى» واستحقاقه لصفة «التواضع» أنه كان، حسبما روى عنه الذهبى، وغيره من المؤرخين، يجمع الحطب فيجىء به إلى بيوت الأرامل، ويملأ لهم الماء بالجرَّة.. ومن أقواله الباهرة فى التواضع: ما دخل ساحة القُرب (من الله) مَنْ استصغر الناس واستعظم نفسه، مَنْ أنا ومَنْ أنت؟ أنا لستُ بشيخ، لست بواعظٍ، لستُ بمُعلِّم. حُشِرتُ مع فرعون وهامان، إن خطر لى أنى شيخٌ على أحدٍ من خَلق الله، إلا أن يتغمَّدنى الله برحمته، فأكون كآحاد (أفراد) المسلمين..

أىْ سادة، تفرَّقت الطوائف شيعاً، وحميدٌ مَنْ بقى مع أهل الذل والانكسار والمسكنة والاضطرار (لله) إياكم والكذب على الله.. ينقلون عن الحلاج أنه قال «أنا الحق» ولو كان على الحق، ما قال «أنا الحق». إياكم والقول بهذه الأقاويل، إن هى إلا أباطيل.. ما هذا التطاول؟ المتطاول ساقطٌ بالجوع (يحتاج الطعام) ساقطٌ بالعطش، ساقطٌ بالنوم، ساقطٌ بالوجع، ساقطٌ بالهِرَم، ساقطٌ بالعناد. أين هذا المتطاول من صدمة صوت: لمن الملكُ اليوم؟ العبدُ متى تجاوز حدَّه مع إخوانه، يُعدُّ عند الحشر ناقصاً. التجاوزُ عَلَمُ نقصٍ يُنشر على رأس صاحبه، يشهد عليه بالدعوى (الادِّعاء) يشهد عليه بالغفلة، يشهد عليه بالزهو، يشهد عليه بالحجاب.

أىْ سادة، ما قلتُ لكم إلا ما فعلته وتخلَّقتُ به، فلا حُجة لكم علىَّ. إذا رأيتم واعظاً، فخذوا منه كلام الله تعالى، وكلام رسوله، وكلام أئمة الدين الذين يحكمون عدلاً، واطرحوا ما زاد.. وإياكم وضياع الأوقات، فإن الوقت سيفٌ إن لم يقطعه الفقير (الصوفى) قطعه. وعليكم بالأدب، فإن الأدب بابُ الأَرَب.

وشهدت الطريقة الرفاعية، بعد وفاة مؤسسها بأكثر من مائة عام، أول صدام بين (السلفية) متمثلة فى الإمام السلفى، الحنبلى، الكبير «تقى الدين ابن تيمية» من جهة، ومن الجهة المقابلة (المتصوفة) المتمثلين فى مريدى وأتباع «الرفاعية»، الذين كانوا قد انحرف كثيرٌ منهم عن السبيل الذى رسمه الشيخ الراعى، الرفاعى، وترسَّم خُطاه فى حياته. ولا بد، قبل استعراض وقائع هذه المواجهة، أن نلفت النظر إلى أن منطقة البطائح بجنوب العراق، كانت تشتهر بكثرة الثعابين.

ولأنها منطقة الانتشار الأول للرفاعية، فقد عُرف الرفاعية المتأخرون زمناً، بقدرتهم على اصطياد الثعابين. وهو الأمر الذى لم يفعله، ولا سمع به شيخهم الأول.. ومع الاضطراب الكبير الذى أحدثه التتار، والفوضى التى عمَّت الأنحاء بسببهم؛ زاد الجهل والخرافة فى ديار المسلمين، وانتشرت بين الرفاعية جماعات المهووسين والممخرقين (النَّصَّابين) وصاروا يستعملون الحيل لإيهام الناس بأنهم أصحاب الكرامات، وكبار الأولياء، وأهل الله. ومن ثم، يحصلون على تقدير الناس وتأييدهم، وعلى أموالهم، مثلما يفعل بعض رجال الدين فى كل العصور، وفى كل الديانات، مستغلِّين سذاجة البسطاء من الناس.

ويورد لنا ابن تيمية ضمن فتاواه التى جُمعت مؤخراً فى كتابٍ ضخمٍ تحت عنوانٍ عام، هو: مجموع الفتاوى (المجلد الحادى عشر) قصة المواجهة الساخنة التى تمت بينه وبين هؤلاء المهووسين الذين يسميهم البطائحية، وليس الرفاعية؛ وهى واقعةٌ مليئة بالدلالات، ومنها ما يتعلق بالحالة المصرية المعاصرة، وبالخلاف بين السلفيين والمتصوفة (أتباع الطرق).. ولذلك، فسوف نختصر فيما يلى ما أورده ابنُ تيمية، ونتوقف خلال ذلك عند النقاط الأهمِّ فى الهمِّ المصرى الحالى. قال الشيخ:

»كتبتُ ما حضرنى ذكره فى المشهد الكبير بقصر الإمارة، والميدان، بحضرة الخَلْق (الناس) فى أمر البطائحية، يوم السبت تاسع جمادى الأولى سنة ٧٠٥ هجرية، وقد كتبتُ فى غير هذا الموضع، صفة حال هؤلاء البطائحية وطريقتهم، وطريق الشيخ أحمد الرفاعى وحاله (لبيان الفرق بينهما)، وما وافقوا فيه المسلمين، وما خالفوهم فيه.. ولما ذكر الناسُ ما يظهرونه من الشعار المبتدع الذى يتميزون به عن المسلمين (لبس الأطواق) قلتُ لهم: هذه بدعة لم يشرِّعها الله ولا رسوله، ولا فعل ذلك أحدٌ من سلف هذه الأمة، ولا من المشايخ الذين يُقتدى بهم..

وكانوا لفرط انتشارهم فى البلاد، واستحواذهم على الملوك والأمراء والأجناد، لخفاء نور الإسلام واستبدال أكثر الناس بالنور الظلام، لهم فى القلوب موقعٌ هائلٌ.. وكانوا يزعمون أن لهم أحوالاً يدخلون بها النار (ولا يحترقون) وأن أهل الشريعة (الفقهاء) لا يقدرون على ذلك. فاستخرتُ الله سبحانه، أنهم إن دخلوا النار، أدخل معهم، ومن احترق فعليه لعنة الله وكان مغلوباً، وذلك بعد أن نغسل جسومنا بالخل والماء الحار، لأنهم يطلون جسومهم بأدوية يصنعونها من دُهن الضفادع وباطن قشر النارنج وحجر الطلق، وغير ذلك من الحيل المعروفة لهم. وأنا لا أطلى جلدى بشىء، فإذا اغتسلنا بالخل والماء الحار، بطلت الحيلة وظهر الحق.. وحضر شيوخهم الأكابر يطلبون من

الأمير الإصلاح (إغلاق الموضوع) وإطفاء هذه القضية، فقال الأمير: إنما يكون الصلح بعد ظهور الحق.

فلما جلسنا وقد حضر خلقٌ عظيم من الأمراء والكُتَّاب والعلماء والفقراء والعامة، وحضر شيخهم.. قلت لهم: لو دخلتم النار وخرجتم منها سالمين، ولو طرتم من الهواء ومشيتم على الماء، لم يكن فى ذلك ما يدل على صحة ما تدعونه.. ورفعتُ صوتى بذلك، فكان لذلك وقعٌ عظيم فى القلوب، وذكرت قول أبى يزيد البسطامى: لو رأيتم الرجل يطير فى الهواء ويمشى على الماء، فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف وقوفه عند أوامر الشرع ونواهيه (هنا يستدل ابن تيمية بالتراث الصوفى) وقول الشافعى: لو رأيت صاحب هوى يطير فى الهواء، فلا تغترَّ به (هنا يستشهد ابن تيمية بالتراث الشافعى، مع أنه كان حنبلياً) وبينما مشايخهم الكبار يتضرعون عند الأمير فى طلب الصلح، جعلت أُلحُّ عليه فى إظهار ما ادَّعوه من دخول النار، مرةً بعد مرة، وهم لا يجيبون..

فلما ظهر للحاضرين عجزهم وكذبهم، رجعوا، فسألنى الأمير عما يُطلب منهم؟

فقلت: متابعة الكتاب والسُّنة. فقال الأمير: فأىُّ شىء يلزمهم من الكتاب والسنة؟

فقلت: حُكم الكتاب والسنة كثيرٌ، لا يمكن ذكره فى هذا المجلس، لكن المقصود أن يلتزموا هذا التزاماً عاماً.

فلما أظهروا التزام الكتاب والسنة، وجموعهم بالميدان يزعقون بأصواتهم وحركاتهم الشيطانية (الثورة المضادة) قلتُ: أهذا موافقٌ للكتاب والسنة؟ فقال شيخهم: هذا حالٌ من الله يسيطر عليهم، فقلتُ: هذا من الشيطان، لم يأمر الله به ولا رسوله. فقال: فبأىِّ شىء سوف تُبطل هذه الأحوال؟ فقلت: بالسياط الشرعية.. يا شبه الرافضة (غلاة الشيعة) يا بيت الكذب والشرك والمروق من الشريعة، لا تقولوا أكذب من اليهود على الله، ولكن قولوا «أكذب من الأحمدية على شيخهم.«

وهكذا يفرِّق ابن تيمية، الذى كان من أجلِّ مشايخ الإسلام وأكثرهم ذكاءً واجتهاداً، بين الجماعة المنحرفة المنتسبة للشيخ أحمد الرفاعى (الأحمدية، البطائحية)، وبين سيرة شيخهم الأول، والراعى أحمد الرفاعى.. غير أن الذين سيُعرفون باسم الأحمدية، لاحقاً، ليسوا هم أتباع أحمد الرفاعى (فهؤلاء عُرفوا بالرفاعية) وإنما أتباع خليفة خليفته، الشيخ «أحمد البدوى» الذى أسس بمصر، الطريقة الأحمدية التى انتشرت انطلاقاً من طنطا (طندتا) إلى أنحاء مصر.. ولسوف نستعرض بعض ملامحها فى مقالنا القادم، فإلى لقاءْ.

وإلى إنصاتٍ وإصغاءْ،

لصوتِ العقل والدين القويم

السارى صداهُ من الزمن القديم

إلى القادم من الأيام، والآتى

رغم أنف العاتى،

المتاجر بالتدين المؤلم وبالأمل العقيم،

زاعم اليقين، والطريق المستقيم

والاصطفاء،

كى يسطو على البسطاء، ويسلب

السفهاء من الأتقياء

الأحمديةُ البدويةُ وتحريرُ الأسرى

رأيتُ مدينة طنطا، أول مرة، فى منتصف العشرينيات من عمرى، كنتُ آنذاك أُعدُّ رسالتى للدكتوراه، وألزمنى الأستاذ المشرف (د. حسن الشرقاوى) بزيارة طنطا، كى أرى وَفْق ما قال: الجامعة السطوحية، وعاصمة الحكومة الباطنية!

كان (الحكومة الباطنية) هو عنوان كتابٍ نشر فيه الأستاذ المشرف، رسالته للدكتوراه، منطلقاً من فرضيةٍ غريبة، ملخصها أن مدينة طنطا (حيث يُدفن السيد أحمد البدوى) هى «مركز القطب» وحوله فى شكل دائرة، وعلى المسافة ذاتها، مدفونٌ خلفاء الشيخ وأتباعه على مرِّ العصور. وبالتالى، فإنهم يشكلون دائرة روحية تعيش منطقة (وسط الدلتا) فى رحابها، وفى عنايتها، على اعتبار أن «القطب» هو سيد العالم الروحانى، الباطنى، فى مقابل حكومة الظاهر ذات الطابع السياسى.. وبالطبع، لم أقتنع يوماً بهذه النظرية الغريبة، ورأيتُ أنها ترتبط بدراسة المعتقدات الشعبية، والفولكلور، والأنثروبولوجيا، بأكثر مما ترتبط بالتصوف.. بل لعلَّها مقطوعة الصلة تماماً بالتصوف! والأقرب منها منطقاً وإقناعاً، أن شيخ الطريقة الأحمدية البدوية، كان له على مَرِّ الأعوام تابعون، منهم تلاميذ ومريدون ومحبون ينتسبون إليه، ويعيشون فى طنطا والقرى التى حولها. وهؤلاء من البديهى أن يُدفنوا بعد الوفاة فى قُراهم، بصرف النظر عن مسألة (الدائرة) هذه، وعن فكرة (الحكومة الباطنية) كلها.

كان هناك، إذن، رأيان فى مسألة المركزية الروحية (الدائرية) لمدينة طنطا، وفى توسُّط «مقام» الشيخ لمركز هذه الدائرة.. وقد رأيتُ، بعد حين، أن لمعظم الأمور المتعلقة بالشيخ أحمد البدوى، وجهتىْ نظرٍ متقابلتين! وفيه دوماً رأيان، حسبما سيأتى بيانه.

■ ■ ■

لا خلاف بين المؤرِّخين فى أن الشيخ (السيد) أحمد البدوى، يعود بأصوله إلى المغرب حيث ولد بمدينة «فاس» سنة ٥٩٦ هجرية، لأسرةٍ تعود جذورها إلى الجزيرة العربية، وتنتمى إلى آل البيت (ذرية الإمام علىّ، والسيدة فاطمة) ومن هنا يلقب «السيد» لانتسابه للسادة الأشراف.. والمؤرِّخون يتفقون أيضاً على أنه رحل عن بلاد المغرب فى شبابه، فنـزل مكة وأقام بها حيناً، ثم رحل عنها إلى العراق والتحق هناك بالطريقة الرفاعية.

وبعد وفاة شيخ الرفاعية بالإسكندرية، أبى الفتح الواسطى، جاء أحمد البدوى ليخلف المتوفَّى فى القيادة الروحية لجماعة الرفاعية، فاستقرَّ بالإسكندرية حيناً ثم انتقل إلى طنطا (كان اسمها آنذاك: طندتا) ولبث فيها حتى وفاته سنة ٦٧٥ هجرية.. وفى سبب نزول البدوى مصر، رأيان:

الرأى الأول صوفىٌّ محض، أو بالأحرى (دراويشى) مفاده أن الشيخ سمع هاتفاً فى المقام يدعوه قائلاً: «قُمْ يا هُمام، وسِرْ إلى طندتا».. فلبَّى الشيخ الدعوة المنامية، وامتثل للأمر الروحى، فرحل

من العراق إلى مصر. فاستقبله الظاهر بيبرس وعسكره، استقبالاً رسمياً مهيباً (حسبما زعم بعض المؤرخين)، مع أن الظاهر بيبرس لم يكن يحكم مصر، ولعله لم يكن موجوداً بها أصلاً، سنة ٦٣٤ هجرية، وهى السنة التى وفد فيها الشيخُ على مصر.

والرأى الآخر، أن الفاطميين بعدما قضى صلاح الدين الأيوبى على دولتهم بمصر، وأباد آثارهم وذريتهم وقطع نسلهم بأن حبس الرجال عن النساء، والنساء عن الرجال، حتى أبادهم الزمانُ بالوفاة وعدم الإنجاب. ولكن فى زمن حبسهم ظل الدعاة الفاطميون يأملون فى استعادة العرش الفاطمى على الطريقة ذاتها التى مهَّدت للدولة الفاطمية بمصر. وهى طريقة إرسال (بَثّ) الدعاة السريين، الذين كانوا يدعون الناس للتشيُّع، ويمهِّدون للدولة بالتجسُّس، ويهيِّئون النفوس لعودة الأئمة للحكم.. وقد أرسلوا (الواسطى) للمهمة ذاتها، فلما تُوفِّى انتدبوا الشيخ أحمد البدوى لاستكمال هذه المهمة السرية، الاستخباراتية.

من جانبى، أرى أن الرأيين السابقين يجانبان الصواب. فلو كان الشيخ قد سمع مثل هذا الهاتف، حقاً، لكان قد كتمه عن غيره، وَفْقَ القاعدة الصوفية الموجبة لستر الحال، وعدم ادِّعاء «الولاية» بل والمبالغة فى إنكارها، كما رأينا الأسبوع الماضى فى كلام الشيخ أحمد الرفاعى.. ولو كان الشيخ داعيةً من الدُّعاة الفاطميين السرِّيين، لظهرت آثار التشيُّع فى طريقته الصوفية، ولو بعد حين، ولكان قد حرص على البقاء فى القاهرة أو الإسكندرية، ليضمن تسريب دعواه إلى نفوس الناس. فضلاً عن أن الذين كانوا، قبل زمانه بثلاثة قرون، يقومون بهذا الدور المعروف تاريخيا باسم (طور الدعوة السرية للأئمة الفاطميين) كانوا هم جماعة «القرامطة» الذين وقع بينهم وبين الحكام الفاطميين صدامٌ وخلافاتٌ مهولة، بل جرت بين الجانبين حروبٌ عدة، فصلت تماماً بين مسالك القرامطة، الذين ثاروا باسم الدين ثم صاروا بعد حين مجرمين، حتى إنهم قتلوا الحجاج بمكة، وقلعوا الحجر الأسود من مكانه (وأخفوه بنواحى البحرين لأكثر من عشرين سنة، تعطل خلالها الحج) فضلاً عما قاموا به من سلب ونهب وتخريب فى ربوع الجزيرة والشام، ومصر، حتى إننى رجَّحت فى محاضرتى الشهرية بساقية الصاوى (الصالون) قبل ثلاثة أسابيع، أن بناء مدينة القاهرة «المسوَّرة» كان بسبب خوف المعزِّ لدين الله من القرامطة. ومعروف أن العزيز بالله (ابن المعزِّ لدين الله، وأبا الحاكم بأمر الله) كان يحارب القرامطة. وبالتالى، فقد تفرقت السُّبل بين الفاطميين والقرامطة (الدعاة) من قبل مجىء السيد أحمد البدوى إلى مصر، بمئات السنين.

■■■

وبعيداً عن الخلاف بين الرأيين السابقين، فإن الدارس لتاريخ الصوفية وحياة الأولياء، يعرف أن التنقل كان سمةً رئيسة فى سِيَر الصوفية، ونادراً ما نجد واحداً منهم قد استقر طيلة عمره بمكانٍ واحد. حتى إن الصوفى الشهير أبا يزيد البسطامى، وكان من الحالات النادرة، سأله معاصروه عن السبب فى التزام بلدته (بسطام) وعدم السياحة فى الأرض، والسفر، مثلما يفعل الصوفية؟ فقال: صاحبى لا يسافر، وأنا معه مقيم.. (يقصد أن الله موجود فى كل مكان.(

وقد عُرف السيد أحمد البدوى فى مصر بالملثَّم، لأنه كان يضع لثاماً على وجهه.. وفى سبب لثامه هذا، رأيان: الأول «دراويشى» يقول به الأتباع والمحبون، وخلاصته أن الشيخ كان يُديم التطلع فى السماء لاستقبال التجلِّيات الإلهية، فكانت الأنوار الربانية تنعكس على وجهه، فيسترها عن الناس باللثام.. وهذا قولٌ واضح البطلان.

والرأى الآخر، أن الشيخ كان من أهل المغرب، وقد كان مولده هناك، ونشأته، وهناك يضع الرجال لثاماً على وجوههم، بحكم العادة، وقد حافظ الشيخ على هذه «العادة» طيلة عمره.. وهذا قول فيه ما يستحق المناقشة، وليس القبول، وهو مردودٌ على قائله لعدة أسباب: أولاً أن أسرة «البدوى» كانت واحدة من الأسرات العربية التى هاجرت مع حركة الفتوح إلى المغرب، ولم نعرف عن العرب أنهم كانوا ملثمين، وإنما عُرف بذلك (الطوارق) من سكان الصحراء الأفريقية، والشيخ لم يكن من هؤلاء. وثانياً، أن نشأة الشيخ وصباه كانا فى بلدة «سبتة» وهى بلدة غير صحراوية، ليس لأهلها سبب يجعلهم يغطون وجوههم، اتقاءً للعواصف الرملية، مثلما هو حال الصحراويين. وثالثاً: جاء من بلاد المغرب صوفية كثيرون، كبار وصغار، ولم نعرف عن أحدهم أنه كان يضع على وجهه لثاماً.

ومن جانبى، أرى أن الرأيين السابقين يجانبان الصواب. والراجح عندى، أن الشيخ كان يستر وجهه باللثام، لأن فيه ما لم يكن الشيخُ يريد للناس أن يروه. فقد ذكر الإمام الشعرانى فى كتابه (الطبقات الكبرى) وهو يحكى عن حياة «البدوى» وملامحه، أن الشيخ كان بوجهه آثار الإصابة بالجدرى، وبين عينيه جُرح بالموسى.

وهذا، فيما أرى، سببٌ كافٍ لإخفاء الوجه.

■ ■ ■

وأتباع الطريقة الأحمدية البدوية شغوفون برواية تجربة (الإغواء) التى تعرَّض لها شيخهم، مع المرأة التى كان اسمها: فاطمة بنت برِّى.. ولهذه القصة وجهان، وفيها أيضاً رأيان وقولان:

القول الأول، أن السيد أحمد البدوى حين ارتحل من مكة إلى العراق، تسلَّطت عليه امرأةٌ فاتنةٌ ذات مالٍ وجمال، هى «فاطمة بنت برِّى» التى كانت تسلب أحوال الرجال (الصوفية) بأن تثير فيهم الغريزة الحسية، وتدفعهم إلى الخروج عن الطريق الروحى بإثارة الاشتهاء فى نفوسهم، وتعذيبهم بالرغبة. وقد تفرغت هذه المرأة للشيخ، وبذلت كل ما فى وسعها لإسقاطه من دائرة الولاية، فاستعصم.. وهو ما دلَّ على تمكُّنه من المقام.

والقول الآخر، ألطف، ومفاده أن «فاطمة بنت برِّى» أحبَّت الشيخ، وطلبت الزواج منه. وهو طلبٌ كان من المنطقى قبوله، لأنه كان مشفوعاً بحبها ومالها الكثير وجمالها الفاتن. غير أن الشيخ، حسبما يقول د. عامر النجار: «وجد نفسه أمام دعوة كبيرة، تحتاج منه إلى تفرُّغ كامل، والزواج قد يشغله، فاستطاع السيد البدوى أن يؤثر فيها ويحوِّلها إلى امرأة متدينة، وأخذ عليها العهد ألا

تعود إلى ماضيها وغوايتها القديمة، وتابت فاطمة توبةً صادقة، وهذه هى القصة فى خيوطها الحقيقية.«

ومن جانبى، أرى القصتين السابقتين تجنحان للخيال، وتجانبان وجوه الصواب. فالقصة الأولى صيغت على منوالٍ أدبى معتاد، بل جاءت متطابقة مع القصة القرآنية (والتوراتية) التى تحكى عن امرأة «العزيز» التى سعت لإغواء النبى «يوسف» فاستعصم، وقالت هَيْتَ لك، فقال معاذ الله وقدَّت قميصه من دُبر.. والقصة الأخرى صيغت على منوال الحكاية الإنجيلية المشهورة عن مريم المجدلية التى كان السيد المسيح سبباً فى هدايتها، لكنه لم يتزوجها لأنه له شغل أهمّ.

والغريب فى القصتين، كلتيهما، أنهما تضعان الصوفى فى هيئة الراهب، الهارب من النساء.. وهذا أمرٌ لا نعرفه فى كبار الصوفية، وأفراد الأولياء، فقد تزوَّج هؤلاء وأحبوا النساء، بل رأوا فيهن (مثلما هو الحال عند ابن عربى، الشيخ الأكبر) المجلى الأتمَّ للجمال الإلهى المتجلِّى فى الكون. وكان ابن عربى يقول «الكون أنثى» ويقول «المكان إذا لم يؤنث، لا يعوَّل عليه» ويقول شعراً فى محبوبته: النظام بنت رستم الكيلانى.. ومعظم الصوفية الكبار تزوَّجوا عدة زيجات، وما كانوا (كاليهود) يرون المرأة سبباً للفساد أو الغواية.

■■■

كما اشتهر عن السيد أحمد البدوى، أنه وفقاً للأغنية الشعبية أو الترنيمة التى طالما ردَّدها الناسُ: جاب اليُسرا.. أى أتى بالأسرى، بحسب قولهم الغنائى الشهير (الله الله يا بدوى، جاب اليسرا) وهى مسألة فيها، أيضاً، قولان:

القول الأول، دراويشى قديم، ومفاده أن الشيخ كان مجاهداً فى سبيل الله، واستطاع أن يحرر أسرى المسلمين من قبضة الصليبيين فى زمانه. وظلت من كراماته، أن أىَّ «أسير» يستغيث به، فسوف يحرِّره الشيخ.. وقد روى البعض أنهم كانوا يجدون فوق سطح «مسجد البدوى بطنطا» أسرى جاءوا طائرين من محبسهم ببلاد الكفار، والأصفاد تقيدهم، لأن هؤلاء الأسرى استغاثوا بالشيخ.. يقول النبهانى، نقلاً عن الإمام الشعرانى (المدفون بباب الشعرية بالقاهرة) ما نصُّه: «شاهدتُ بعينى سنة ٩٤٥ أسيراً على منارةٍ بسيدى عبدالعال (تلميذ البدوى وخليفته) مقيَّداً مغلولاً، وهو مختبط العقل. فسألته عن ذلك، فقال: بينما أنا فى بلاد الفرنج، آخر الليل، توجَّهت إلى سيدى أحمد البدوى. فإذا أنا به (رأيته أمامى) فأخذنى وطار بى فى الهواء، فوضعنى هنا.«..

والقول الآخر، عقلانى معاصر، يقدِّمه لنا عبد اللطيف فهمى فى كتابه (دولة الدراويش) نقلاً عن الشيخ مصطفى عبدالرازق، ونصه: «يبدو لى أن مسألة الأسرى هذه ترجع إلى واقعة تاريخية مشهورة، وذلك أن وزارة الأوقاف أرسلت السيوف والدروع التى غنمها الجيش المصرى من جيش لويس التاسع (الذى أُسِر فى دار ابن لقمان بالمنصورة) لتخزَّن فى مخزن المسجد الأحمدى. فكان دراويش السيد وأتباعه، يتقلَّدون هذه الدروع والسيوف فى مواكب الأحمدية، ويزعمون للناس أنهم الأسرى الذين جاء بهم السيد من بلاد أوروبا. فلما تقدَّمت الأيام، انتقلوا

بهذا الزعم نقلةً ثانية، فقالوا إنهم سلائل أولئك الأسرى. والعجيب فى هذا كله، أن تترك الحكومة المصرية هذه الدروع والسيوف التاريخية، نهباً للضياع فى أيدى أولئك المعتوهين.«..

ومن جانبى، أرى أن القول الأول يدحض القول الآخر ويكذِّبه. فإذا كان سبب هذا الاعتقاد بتحرير الأسرى، هو إهمال الحكومة المصرية متمثلة فى وزارة الأوقاف، وتهاونها فى تخزين الآثار.. فكيف تروى الوقائع (الفكاهية) التى رأيناها فى القول الأول، قبل عدة قرون من قيام وزارة الأوقاف، والحكومة المصرية، أصلاً؟ فضلاً عن أن صاحب الكتاب، الناقل عن العلامة مصطفى عبدالرازق، لم يستوثق مما نقله، ولم يكن فى واقع الأمر محايداً تجاه الطريقة الأحمدية البدوية، فجاء كتابه بمثابة هجوم عارم على الشيخ وطريقته.

والقول الأول، مدفوع أيضاً بالعقل والمنطق والتاريخ.. فلم يُعرف عن السيد أحمد البدوى أنه شارك فى حياته، بحروبٍ أو أعمالٍ عسكرية، ولم يُعرف عن الأسرى أنهم يطيرون، ولم يعرف عن الناجى من الأسر أنه يصير مجنوناً متخبط العقل، ولم يُعرف عن المناوى إلا رواية الأساطير (الكرامات)، ذات الطابع الأدبى الفنتازى.

وبطبيعة الحال، لم يكن مريدو الأحمدية كلهم من العوام، ولا كان مشايخهم جميعاً من هذا النوع، وإلا لما استطاعت الطريقة أن تبقى حية، وعامرة، طيلة القرون الماضية. فقد كان لها من أجلاء الشيوخ، من استطاعوا استبقاء الوهج الصوفى، الصافى، فى غمرة الصخب الذى يحدثه العوام من المريدين. وأول هؤلاء الشيوخ، بعد السيد أحمد البدوى، هو خليفته «عبدالعال» الذى خلفه كثيرون من المشايخ، وصولاً إلى أيامنا الحالية.

وبقاء الطريقة، أمرٌ يختلف عن انتشارها. فقد بقيت طرق صوفية، ظلت دوماً محدودة العدد، أزمنةً طويلة. بل عاش تراثُ صوفيةٍ كبار، قروناً، من دون أن تكون لهم طرق صوفية ينتسب فيها الأتباع لمتصوفةٍ كبار مثل ابن سبعين، والششترى، والحكيم الترمذى.. وغيرهم، على اختلاف أزمنتهم.

وخلاصة القول، أن «الطريقة» الأحمدية البدوية انتشرت فى مصر، خلال القرون القليلة الماضية، بين البسطاء من الفلاحين، وبين السُّذَّج من القرويين، وبين المنسيين المهمَّشين الذين عوَّضوا بؤس واقعهم بخيالهم الجامح.. وعندما تصير الواقعية غير ممكنةْ،

ويحوط الفراغُ كلَّ الأمكنةْ

يطلُّ الخيالْ

فيصنع للعاجزين الأهوالْ

ويؤنس البؤساء، ويداويهم، بالأقوالْ

وقد يستبدل بالحمير الأحصنة

..يفجر الآبار الآسنة،

فتكون فى الحلم أنهاراً

وفى قلب الليل نهاراً

لا تراه إلا القلوب المؤمنةْ

■■■

وبعد.. فلم يبقَ من هذه السُّباعية إلا مقالةٌ واحدة، سوف نخصص جزءها الأول (يوم الأربعاء المقبل) للطريقة الدسوقية وشيخها إبراهيم. وفى جزئها الآخر، نستعرض اختلاف النهج والتفكير بين الجماعات الصوفية فى مصر، والجماعات السلفية، عسانا بذلك نتعرف على مزيد من مكونات مجتمعنا المصرى الزاخر بالرؤى، وبالاتجاهات، وبالتنوع البشرى الخلاق.

الدسوقيةُ واقتتالُ السُّوقي

مَنْ عاملَ الله بالسرائر،

جَعَلَه على الأسِرَّة والحظائر..

إذا ضحك الفقير (الصوفى) فاحذروه،

ولا تخالطوه إلا بأدب!

الإنكارُ يورِّث الوحشة،

والوحشةُ تورِّث الانقطاع عن الله.

كُلُّ مَنْ وقف مع مقامٍ،

حُجِب به..

وَلَدُ الصُّلبِ يرث الظاهر،

وولدُ القلب إرثه السرائر..

ما دام لسانك يذوق الحرام،

فلا تطمع أن تذوق الحكمة..

مَنْ ابتلاه الله فليصبرْ،

فما ابتلاه إلا ليرقِّيه،

أو يطرده!

كلما رَقَّ الحجاب،

ثقلت الثياب..

الطرقُ كلها ترجع لكلمتين:

تعرف ربك، وتعبده.

■■■

تلك كانت كلمات الشيخ برهان الدين إبراهيم الدسوقى، المولود بقرية مرقوس (مرقس، ماركوس، مارك) بمحافظة الغربية، سنة ٦٥٣ هجرية، حسب أرجح الأقوال، والمتوفى حسب أغلب الأقوال سنة ٦٩٦ هجرية، بقرية «دسوق» الواقعة بشمال الدلتا. وهى القرية التى انتقل إليها بعد اعتدال عوده، ودعا فيها للتصوف فازدهرت وتحوَّلت مع الأيام، ونشاط المريدين، من قريةٍ منسية إلى مدينةٍ عامرة.. وقد اشتقَّت الطريقة الصوفية «الدسوقية» اسمها من تلك البلدة، كما اشتقت اسمها «البرهانية» من كُنية الشيخ (برهان الدين) واشتقَّت اسمها الثالث من اسمه الأول: إبراهيم.

وكان من المتوقع، أن تكون الطريقة الدسوقية (البرهانية، البرهامية) امتداداً للطريقة الرفاعية، حيث إن شيخها المذكور هو سِبْط (ابن بنت) الشيخ أبى الفتح الواسطى، خليفة الإمام أحمد الرفاعى. لكن الدسوقية صارت طريقة مستقلة تستهدى بسيرة الدسوقى، وتستنير بأقواله وأحواله، من دون ارتباطٍ واضح بالرفاعية.. وهو الأمر ذاته، الذى ينطبق على الطريقة «الأحمدية البدوية»، التى كان من المتوقع من شيخها (أحمد البدوى) أن يكون امتداداً لأبى الفتح الواسطى، الذى كان امتداداً مصرياً / سكندرياً للشيخ الراعى: أحمد الرفاعى)، غير أن طريقة «البدوى» الصوفية انسربت فى اتجاهٍ خاص من دون ارتباط واضح بالرفاعية.

■■■

وقد امتازت الطريقة الدسوقية فى مبتدأ أمرها، بالاعتدال الذى امتاز به شيخها «الدسوقى»، وظهر للناظر فى أحواله وأقواله. فالشيخ الذى لم يعمِّر طويلاً، ومات ولم يبلغ الرابعة والأربعين من عمره، كانت اتجاهاته الصوفية متوازنة ومستمسكة بالحدود الشرعية الواضحة. وهو ما انعكس على سيرته، وعباراته التى حفظها لنا المؤرِّخ الصوفى (المصرى) الشهير «عبدالرؤوف المناوى»، واخترنا منها الكلمات الرائقات التى ابتدأتُ بها هذه المقالةُ. وانعكس أيضاً على نصائحه وتوجيهاته الروحية لمريديه، كما يظهر فى قوله: عليك بالعمل بالشرع، وإياك وشقشقة اللسان بالكلام فى الطريق (التصوف) دون التخلُّق بأخلاقه.. كونوا خائفين من الله، فإنكم غنمُ السكين، وكباشُ الفناء، وخرافُ العلف، وتنُّورُ شِواكمُ قد وَهَج..

احذرْ أن تدَّعى معاملة خالصة مع الله، فإن صُمْتَ فهو الذى صوَّمك، وإن قُمْتَ (صلَّيت) فهو أقامك، وليس لك فى الوسط شىء! فالشأن أن ترى أنك عبدٌ عاصٍ ليس لك حَسَنةٌ واحدة، وأنَّى يكون لك حَسَنة وهو (تعالَى) الذى أحسن إليك، وإن شاء رَدَّ عليك.. أولُ الطريق، الخروجُ عن النفس والحظ، والرضا بالضيق والتلف.. أَكْلُ الحرام وقَوْلُ الحرام، يفسد العمل ويوهن الدين. ومعاشرة أهل الدَّنس، تُورث ظلمة البصر والبصيرة .. مَنْ لم يتَّعظ بكلامنا، فلا يمشى فى ركابنا.. إياك أن تقول «أنا فعلتُ، أنا ولَّيتُ، أنا عزلتُ»، فإنه تعالى، يُعجز كلَّ مدعٍ.. واغوثاه من أهل هذا الزمان، لو علمتُ أن فى الأجل فسحةً، لسكنتُ الجبال وبطون الأودية مع الوحش، حتى أموت.

■■■

غير أن الطريقة الدسوقية، بفروعها المختلفة كالشرنوبية والشهاوية والعاشورية، لحقها من زمن التخلف الحضارى لمصر ما لحق بمعظم الطرق الصوفية التى لجأ إليها العامة والبسطاء، للاحتماء من قسوة الواقع المعيش. تماماً، مثلما هرب الرهبانُ المصريون قديماً من عنت الرومان، إلى الأديرة والخلوات الصحراوية، لأن آليات الفعل الإنسانى العام، تظل واحدةً ومتشابهة، وإن تلوَّنت باختلاف الزمان.

المهم، أن الدسوقية فشت فيهم، فى القرون الأخيرة (لغلبة الجهل عليهم)، أحاديثُ الكرامات والمعجزات، وخوارق العادات، والإعلاء المبالغ فيه للقادة الروحيين، حتى إنهم بلغوا بهم مرتبة تكاد تلامس الألوهية!

فى تراث الدسوقية، كُتُب منسوبة للشيخ (وأشعار)، منها كتاب «الجوهرة» وكتاب «منبر».. وكلها تموج بالهادر من كلام الكرامات، كأن تجعل الدسوقى على صورة السيد المسيح! فهو عندهم، فور مولده، لا يلقم ثدى أمه فى نهار رمضان «ولما بلغ من العمر سنة، أمسك بمن تحملهم الريح من أولياء الله، وأقعدهم على الأرض. ولما بلغ سنتين، أقرأ (عَلَّم) مؤمنى الجنِّ القرآن..

ولما بلغ التاسعة، فكَّ طلاسم السماء، ولما بلغ اثنتى عشرة سنة نقل مريديه من النار إلى الجنة (بإذن الله)، ولما بلغ ثلاث عشرة سنة، جُعلت الدنيا فى يده كالخاتم يقلِّبها كيف يشاء، ولما بلغ خمس عشرة سنة خاطب جبريل وعرف الإجمال والتفصيل، ولما بلغ ست عشرة سنة جاوز سدرة المنتهى وحصل له المراد وانتهى.. إلخ.«

ونسبوا إلى الشيخ، قوله: «أنا موسى فى مناجاته.. فى السماء شاهدته (تعالَى) وعلى الكرسى خاطبته!

بيدى أبواب النار أغلقتها، وبيدى جنة الفردوس فتحتها! مَنْ زارنى أو زار الرسول، أسكنته جنة الفردوس.«

وبالطبع، فقد كانت هذه الأقوال، وأمثالها، باباً للهجوم على التصوف، من غير تفريق بين الصوفى والمتصوف، وبين صاحب الطريقة وتابع الطريقة، وبين الأئمة من الصوفية والمريدين المتأخرين من المتصوفة..

والأهم، من غير مراعاةٍ لطبيعة العقلية العامة والنفسية الجامعة لعموم الناس، فى اللحظة البائسة التى نتجت فيها، وشاعت، حكاياتُ الكرامات، إذ لجأ المخيال الشعبى، تحت وطأة الواقع المرير المقترن بشيوع الجهل والتعلق بالرغبة فى الخلاص، للهرب من حُكم الحال، بالتعلُّق بالأمل المستحيل، عبر الإغراق فى الحلم والاستمساك بفكرة المخلِّص (الذى لا يخلِّص) المتمثل فى الشيخ.. الولىِّ .. القديس.. الإمام.. الأنبا.. وغير ذلك من الألقاب والتَّسميات.

وكان الفكر المصرى، الخرافى المتمثل فى كرامات الصوفية ومعجزات القدّيسين. هو السبيل الوحيد لضمان المصير المشرق فى الآخرة، بعد معاناة المصير المظلم فى الدنيا، ولذلك اقترنت هذه المعتقدات دوماً بقدرة «المخلِّص المتوهَّم» على العبور بمحبِّيه إلى الجنة..

فضلاً عن التعزية العامة، فى الدنيا، عند التعلُّق بهذا المخلِّص (الصوفى، الجهادى، القداسى) من خلال صورة أخرى، وهمية، يرسمها له الأتباع. بقطع النظر عن مخالفتها الصورة الفعلية التى كان عليها هؤلاء الرجال الكبار، فعلاً، وبقطع النظر عن تحذيراتهم من الغرق فى الخرافة وحديث الكرامات والمعجزات، وبقطع النظر عن عدم الجدوى.. يكفى هذا، ولننتقل إلى الجزء الآخر من المقالة.

■ ■ ■

ثارت الخلافاتُ دوماً بين مَنْ صاروا يُسَمَّون اليوم إجمالاً (السلفية) ومَن يُعتقد بأنهم الصوفية، وما هم فى واقع الأمر إلا البسطاء اليائسون المتعلقون بالتصوف.. وقد احتدم الخلاف فى مناسبات كثيرة، وكاد يصير اقتتالاً بين الفريقين عقب ثورة المصريين قبل شهور، لولا التهَى «السلفيةُ» بالنضال المقدس، حامى الوطيس، مع أتباع الكنيسة اليعقوبية «الأقباط» وهو المسلك البائس الذى بلغ حَدَّ القبح والسخف، فى أحداث كنيسة إمبابة.

فانسحبت من المشهد المصرى العام «إلى حين» طبيعة الخلافات والمنازعات المزعجة بين (السوقة) من أتباع الطرق الصوفية، والسوقة من أتباع الجماعات السلفية.. وأقول «إلى حين»، لأن أسباب الخلاف والنـزاع، لا تزال كامنةً بين الفريقين، مع أن هناك عدة أمور جامعة بين أولئك وهؤلاء. ولسوف نستعرض فيما يلى أوجه الخلاف، ثم وجوه الاتفاق، ثم بيان الفارق بين السوقة والخاصة فى الفريقين.

ينظر المتصوفةُ للسلفيين نظرة استعلاء (لا يرضاها التصوف) على أساس أن هؤلاء السلفيين هم أصل الظاهر، الذين يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، بينما يتعمق المتصوفة فى (الباطن) ويتلمسون حقائق الدين بنوعٍ من (الذوق) المباشر.. وفى المقابل، يرى السلفيون أن هؤلاء المتصوفة، جهلة يطرحون رداء الشريعة ويطمسون معالم الدين بالإغراق فى الغيبيات.

وينظر السلفيون للمتصوفة، على أنهم وثنيون يعبدون القبور ويتقربون إلى الله بمدافن الأولياء، وهو فعلٌ يشابه أفعال الجاهلية الأولى، ويقارب عبادة الأصنام.. وفى المقابل، يرى المتصوفة أن السلفيين لا يفهمون شيئاً من أسرار الولاية، ولا يفقهون إلا فى أحكام العموم (السطحية)، فلا ينفذون إلى الوسيلة المثلى للتقرب من الله عبر بوابة الشيخ أو الولىّ. وما الهدف الصوفى من الاحتفاء بقبور الأولياء، إلا الاستهداء بسيرة (أولياء الله) فى المسيرة الروحية العارجة من الأرض إلى السماء.

وينظر المتصوفةُ للسلفيين نظرة احتقار (لا يرضاها التصوف) على اعتبار أن هؤلاء السلفيين يتبعون الفكر الصحراوى المتخلف، المخادع بالمظاهر، الذى لا يُعنىَ بترقية النفس الإنسانية للانتقال بها من مستوى النفس الأمارة بالسوء، إلى مستوى النفس الراضية المرضية.. وفى المقابل، يرى السلفيون أن المتصوفة يبهرجون على أنفسهم وعلى الناس، بباطل الأقاويل الفارغة التى تدخل فى باب (تلبيس إبليس) وتساير الأوهام بالساقط من كلام الكرامات والتهويلات المخرِّبة للعقول والنفوس.

وينظر السلفيون للمتصوفة على أنهم منحرفون عن صحيح الدين، لأنهم لا يهتمون بالفقه والعلوم الشرعية، ويقيمون «الموالد» الحافلة بالثريد (الفتَّة) ويرتكبون المنكرات بدعوى العبادة، ويتجرأون على الله، بإسقاط التكاليف الشرعية كالصوم والصلاة.. وفى المقابل يرى المتصوفة أن السلفيين لا يحبون النبى، ولا يعترفون بالنور المحمدى. فهم محجوبون بجهلهم وبالمقت الذى يملأ نفوسهم، وبالتالى يصومون ولا صوم لهم، ويصلُّون ولا صلاة لهم، لإهمالهم «الإخلاص» الذى هو الشرط الأول لقبول العبادات، وليس لإنسانٍ أن يرقى إلى الله بكثرة الصلاة والصوم، ما دام غافلاً عن أسرار هذه العبادات ومعانيها الباطنة.

■■■

ولكن هناك أموراً جامعة بين المتصوفة والسلفيين، أولها انتسابُ الفريقين إلى دائرة دين واحد (الإسلام) وثانيها التراثُ المشترك بين الفريقين، وهو تراث الفترة الإسلامية المبكرة، حيث عاش النبى والصحابة، وتم إرساء قواعد الدين، قبل أن يتفرق الناس شِيَعاً ومذاهب متعددة (فرق)، وثالثها استمساك الفريقين بالنص القرآنى، سواء استفهمه الصوفية، بحسب معانيه العميقة، أو أخذه السلفيون على ظاهر حروفه.

غير أن هذه الأمور (الجامعة) هى التى عمَّقت (التفرُّق) بين المتصوفة والسلفيين، لأن كليهما يرى فى نفسه الموقف الصائب من الدين، ويعتبر ذاته القائم بشرع الله المكين، وينظر لذاته على أنه الامتداد الحقيقى لعصر النبوة والصحابة والتابعين بإحسانٍ إلى يوم الدين.. ولذلك، فلن نجد انتقادات «سلفية» لمسالك الرهبان المسيحيين، مثلاً، لأن هؤلاء يقعون خارج دائرة الإسلام أصلاً، وبالتالى فهم لا يعبِّرون عن شىء ولا يعتدُّ بهم. وتطهير الدين لا يكون إلا داخل نطاق الدين (الإسلامى) الذى هو قاعدة الاختلاف بين الفريقين، وإذا انتفت هذه القاعدة لم يعد هناك معنى للاختلاف.

والسلفيون يستندون دوماً إلى «تراث» الخلاف بينهم وبين المتصوفة، ويتذاكرون كُتباً من مثل «تلبيس إبليس» لابن الجوزى، أو «تنبيه الغبى بتكفير ابن الفارض وابن عربى» للبقاعى.. وهى كُتب يفصح عنوانها بوضوح عن محتواها، غير أن المتصوفة فى المقابل من هذا، يستندون فى رَدِّهم على السلفيين إلى تراثٍ هائل من النصوص المؤيدة للتصوف، المندِّدة بالوهابية وبالاتجاهات الدينية المتشدِّدة.

■ ■ ■

والملاحظ فى واقعنا المعاصر، وفى تاريخنا السابق، أن احتدام الخلاف بين المتصوفة والسلفيين، واندلاع المواجهة بين الفريقين، والحرب الكلامية والاعتداء المتبادل، هى أمور تتم دوماً عند مستوى السوقة من أولئك وهؤلاء. وكلما انخفض هذا المستوى، زاد ذاك الخلاف وتهيَّجت المواقف المتضادة..

وعلى العكس، نرى أن الخاصة (العلماء) من الفريقين، قد ترفَّعوا عن الخوض فى مثل تلك الأمور، بل إن كثيرين من صفوة الصوفية، ومن علماء السلف، أفاضوا فى بيان التوافق بين المنهجين، بعيداً عن هرج العامة (السوقة من الناس) وهياجهم.

ومن هنا نجد إماماً سلفياً شهيراً، بل هو الأشهر فى القرون السبعة الماضية، هو «ابن تيمية» يمتدح مسلك الصوفية المعتدلين فى رسالةٍ له عنوانها (الصوفية والفقراء)، ويشرح كتاب «فتوح الغيب» لعبد القادر الجيلانى، الذى كان إماماً حنبلياً وشيخاً صوفياً فى الوقت ذاته.

مع أن «ابن تيمية» كان قد انتقد، حسبما رأينا فى المقالة الخامسة من هذه السباعية، الذين يبهرجون على الناس باسم التصوف والولاية، وله فى فتاواه، مواقف رافضة لغُلاة المتصوفة، الذين رأى من وجهة نظره، أنهم «كانوا سبباً فى ظهور فتنة التتار.«

ولدينا عديدٌ من الأئمة، جمعوا بين الصوفية والسلفية، من دون منازعة، كالشيخ الشهير «ابن قيم الجوزية» صاحب المؤلفات المعروفة، وغيره كثيرون من العلماء السابقين والمتأخرين الذين لم يخلطوا بين الصوفى والمتصوف، وبين القواعد العامة للطريق الروحى والممارسات (السوقية) ذات الطابع الفلكلورى.. ولدينا أيضاً، عديدٌ من المواقف النقدية الرافضة لأفعال العوام، والمرتزقة باسم التصوف، كتبها صوفيةٌ كبار حرصوا على التفرقة بين المعنى العلمى للتصوف، والجهالات التى اخترعها العوام.

وبعيداً عن التراث وما هو مكتوب، فقد رأيت بنفسى مسلك الصوفية الكبار، الذين تيسَّرت لى صحبتهم فى زمن البداية، ولم أجد عندهم أىَّ اهتمام بما يظنه العوام تصوفاً.. فلم أرَ واحداً منهم يشعوذ أو يبهرج أمام مريديه، أو يشارك فى المهرجانات المسماة «الموالد».. حتى مجالس السماع الصوفى، كانوا يتحفظون عليها ويرونها من مضادات (الوقار)، الذى يجب أن يتحلَّى به الصوفى والمتصوف، على حَدٍّ سواء.

■ ■ ■

وبعد.. فها هى هذه السباعية قد انتهت، وقد أردت منها توجيه الأنظار إلى طبيعة التكوين المتعدد للمجتمع المصرى المعاصر، وتفهُّم المواقف العامة التى يتألف منها المزيج الثقافى للمصريين، واستبصار الآتى مستقبلاً باستكشاف المواضع الملتهبة أو القابلة للالتهاب والاشتعال بين الناس

فى بلادنا.. خاصة بعد (الثورة) التى من شأنها إثارة المسكوت عنه وتحريك السواكن، وتخريج المتوارى.

تمت بحمد الله